الإصدار: 14



الطـريـق... مـن هنــا

الشيخ محمد الغزالي





الطريق من هنا

الشيخ محمد الغزالي

الإصدار: 14 (فبراير 2009م / صفر 1430هـ)



الشيخ محمد الغزالي:

من مواليد مصر سنة 1335هـ/1917م، درس بكلية أصول الدين بالأزهر، وحصل على درجة العالمية سنة 1943م، وعمل بوزارة الأوقاف مع الشيخ الباقوري والبهي الخولي والسيد سابق،ورأس المجلس العالمي بالجامعة الإسلامية بالجزائر. تفرغ للدعوة والتأليف. وتوفي، رحمه الله، في 9 مارس من سنة 1996م، ودفن بالبقيع بالمدينة المنورة.

من مؤلفاته: «تراثنا الفكري في ميزان الشرع»، و «المحاور الخمسة للقرآن الكريم»، و«تأملات في الدين والحياة»، و«كيف نتعامل مع القرآن الكريم»، و«حصاد الغرور» وغيرها....



نهـر متعـدد ... متجـدد

مشروع فكري وثقافي وأدبي يهدف إلى الإسهام النوعي في إثراء المحيط الفكري والأدبي والثقافي بإصدارات دورية وبرامج تدريبية وفق رؤية وسطية تدرك الواقع وتستشرف المستقبل.



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

إدارة الثقافة الإسلامية

ص.ب: 13 الصفاة - رمز بريدي: 13001 دولة الكويت

الهاتف: 22487106 (+956) - **فاكس:** 22468134 (+965)

البريد الإلكتروني: rawafed@islam.gov.kw

موقع «روافد»: www.islam.gov.kw/rawafed

الطبعة الأولى - دولة الكويت

فبراير ٢٠٠٩م / صفر 1430 هـ

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الموقع الإلكتروني: www.islam.gov.kw

تم الحفظ والتسجيل بمكتبة الكويت الوطنية

رقم الإيداع: 2009 / 019

ردمك: 978-99906-678-8-2

فهرس المحتويات



تصــــــديـــــــر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

من مظاهر عافية الفكر الإسلامي الحديث أن يمتلك مجسات قادرة على تبين مكامن الضعف والخلل في مسيرة استئناف الحياة الإسلامية في مجال الأحوال الشخصية والعلاقات الاجتماعية والدولية ،وتجديد المنظومة القيمية الحاكمة للمسلمين في مسيرتهم الحضارية المعاصرة.

وليس منكرا أن يكون الفكر الإسلامي مالكا لملكة نقدية تهديه إلى اكتشاف مكامن الخلل والقصور في خطابه التربوي والدعوي وحركته الإصلاحية، بل المنكر المستهجن أن تضمر عنده تلك الملكة ، فلا يتبين معالم الطريق ، أو تعتوره الأدواء فيتخلف عن ريادة الأمة في مناشطها المعرفية والفكرية والاجتماعية والحضارية.

والرصد الشامل مفض إلى أن الفكر الإسلامي استطاع أن يرتاد آفاقا خصبة في مواجهة العديد من الإشكالات في مجال الأسرة والمعاملات المالية والعلاقات الدولية وحقوق الإنسان والبيئة والاقتصاد والتشريعات، لكن المواكبة النقدية محتاجة إلى أن تتأسس على أصول علمية ، وتكون محكومة برؤية استشرافية ، وتؤول إلى مقاصد معتبرة بنظر القرآن الكريم والسنة النبوية ، وقبل هذا وذاك ، هي محتاجة إلى أن تصير مناخا ينتشر في البيئة الفكرية.

ويعتبر الشيخ محمد الغزالي ، رحمه الله، من أوائل من رفع قواعد النظر النقدي المنهجي في مسيرة الفكر الإسلامي المعاصر، وذلك بما أوتي من استقلالية في الرأي، ومنهجية في الرؤية، وتبحر معرفي في العلوم الإسلامية، فضلا عن مخالطة حية لتجربة التجديد الإسلامي المعاصرة داخل العديد من البلاد العربية والإسلامية.

ومعلوم أن كتابات الشيخ محمد الغزالي غزيرة ومتنوعة، وله آراء

أنتجت العديد من النقود والردود ، وهي ظاهرة صحية في الفكر الإسلامي إذا هي احتكمت إلى قيم الإنصاف والعدل في الأحكام والرغبة في بلوغ درك الصواب.

وكانت إدارة الثقافة الإسلامية بقطاع الشؤون الثقافية قد أصدرت له كتاب «الطريق من هنا» ضمن سلسلة « ثقافتك» ، ونظرا لنفاد الطبعة، ورغبة الجمهور في الحصول على نسخ منه، فقد ارتأت الإدارة أن تقدم له طبعة جديدة ضمن إصدارات «روافد» ليتحقق به النفع العام بإذن الله.

إن كتاب «الطريق من هنا» يقدم معالجات لمفاهيم وسلوكات ومواقف تنتشر في البيئة الفكرية الإسلامية، وتحتاج إلى إعادة نظر وتقويم، وتستدعي ترشيدا يقوم على إدراك دقيق لمقاصد القرآن والسنة النبوية، ومعرفة فاحصة بالواقع المعاصر، وقد توفر للشيخ ، رحمه الله، ملكة ذلك، وبلَغ ما كان يراه واجبا عليه ، ومطلوب من قرائه أن يركنوا إلى الغايات النبيلة التي كان يتغياها من معالجاته، ولايقفوا عند عبارة حادة هنا أو رد فعل هناك.

إن الاجتهاد في ساحة الفكر الإسلامي باب مشرع منذ زمان، وقد تحققت، ولله الحمد، أهداف إيجابية بسبب إعماله في مختلف القضايا التي تستدعي تجديدا في النظر واجتهادا في المعالجة. وسيسجل التاريخ أن الشيخ محمد الغزالي لم يأل جهدا في خدمة الفكر الإسلامي نصحا وتوجيها ونقدا واستشرافا. جعل الله جهوده في ميزان حسناته ، ونفع بها الأمة حالا واستقبالا.

ويسعد إدارة الثقافة الإسلامية أن تقدم للجمهورالكريم هذه الطبعة الجديدة من كتاب الشيخ الغزالي ، إسهاما منها في شحذ ملكات النظر والمراجعة والنقد الذاتي، وترسيخ قيم الفكر الوسطي القائم على الحكمة في أصوله ومقاصده ومناهجه على حد سواء.



مقدمة

تخلُّف العالم الإسلامي قضية معروفة وإن كانت مخجلة! وهذا التخلف أطمع الأقوياء فيه بل قد طمع فيه مَنْ لا يحسن الدفاع عن نفسه! وشرّ من ذلك أن هذا التخلف ألصق بالإسلام تهمًا كثيرة ؛ بل إن عقائد خرافية فكرت في إقصائه ووضع اليد على أتباعه!.

ولست ألوم أحدًا استهان بنا أو أساء ظنه بديننا ما دمنا نحن المسؤولين الأوائل عن هذا البلد، إن القطيع السائب لا بد أن تفترسه الذئاب..

وقد نهض كثيرون لمعالجة هذا الانحدار، وإزاحة العوائق التي تمنع التجاوب بين الأمة ودينها أو إزالة الأسباب التي جعلت أمة كانت طليعة العالم ألف عام تتراجع هائمة على وجهها في مؤخرة القافلة البشرية..

ورأيت ناشدي الإصلاح فريقين: فريقًا يتجه إلى الحكم على أنه أداة سريعة لتغيير الأوضاع، وفريقًا يتجه إلى الجماهير يرى في ترشيدها الخير كله..

قلت في نفسي: إن الذين يسعون إلى السلطة لتحقيق رسالة رفيعة لا بد أن يكونوا من الصديقين والشهداء والصالحين أو من الحكماء المتجردين والفلاسفة المحلِّقين! وأين هؤلاء وأولئك؟ إنهم لم ينعدموا، ولكنهم في الشرق الإسلامي عملة نادرة.. ومع ذلك، فإن أي حكم رفيع القدر لن يبلغ غايته إلا إذا ظَاهَرَه شعبٌ نفيس المعدن عالي الهمة.

إذن الشعوب هي الأصل، أو هي المرجع الأخير! وعلى بغاة الخير أن يختلطوا بالجماهير لا ليذوبوا فيها، وإنما ليرفعوا مستواها ويفكوا قيودها النفسية والفكرية؛ قيودها الموروثة أو التي أقبلت مع الاستعمار الحديث.

وجاء الاعتراض السريع؛ إن السلطات القائمة لن تأذن لهم بذلك، فهذه السلطات إن لم تَوَجَل على منافعها وَجَلَت القوى الكبرى التي تملك زمام الأمور في العالم الكبير، ومن ثم فسوف تُخرِس الدعاة وأولي النهى..

ولم تخدعني هذه الحجة على وجاهتها الظاهرة، ولم أرها ذريعة للاشتباك مع الحاكمين، وأخذ الزمام من أيديهم بالقوة، فقد راقبت كثيرًا من مراحل الصراع على السلطة، ودرست ناسًا نجحوا في الوصول إلى المناصب الكبرى فلم أرهم صنعوا شيئًا، بل لعلهم زادوا الطين بلة!!.

إنني أناشد أولي الغيرة على الإسلام وأولي العزم من الدعاة أن يعيدوا النظر في أساليب عرض الإسلام والدفاع عنه، وأن يبذلوا وسعهم في تغيير الشعوب والأفكار، سائرين في الطريق نفسه الذي سار فيه المرسلون من قبل.

والإسلام اليوم يعاني من أمرين:

الأول: تصور مشوش يخلط بين الأصول والفروع، وبين التعاليم المعصومة والتطبيقات التي تحتمل الخطأ والصواب، وقد يتبنى أحكامًا وهمية ويدفع عنها دفاعه عن الوحي ذاته!!.

الثاني: جماعات متربصة تقف بعيدًا دون عمل، تنتظر بأعداء الله الويل والثبور وعظائم الأمور، وهي في ميدان الدعوة الإسلامية بطالة مقنَّعة؛ لأن المسلم سواء ملك سلطة رسمية أم لم يملك إنسان ناشط دءوب لا ينقطع له عمل في الشارع أو البيت أو المسجد أو الحقل أو المصنع أو الدكان أو المكتب.. وليس العمل المطلوب مضغ كلمات فارغة، أو مجادلات فقهية، أو خصومات تاريخية، إن العمل المطلوب أسمى من ذلك وأجدى.

إننا نحن المسلمين انهزمنا في ميادين كبيرة لا تحتاج إلى عصا السلطة. والمجتمع الذي يعجز عن محو تقاليد سيئة في دنيا الأسرة لن يحقق نصرًا في دنيا السياسة، وكيف ينفذ قوانين الشريعة من لم ينفذ قوانين الأخلاق؟!

ليس من الإسلام أن أضع قدمًا على أخرى ثم أرتقب من جنِّ سليمان أن تضع بين يدي مقاليد الحكم..

إن الجهاد الإسلامي كدح مُضنٍ في ميادين وعِرَة ذكرت نماذج لها في هذا الكتاب. وقد ساق الله الدولة للمسلمين الأوائل وهم مشغولون بالعمل له، وبناء مجتمع رباني خالص من الرذائل والمآرب؛ أي أن أولئك المسلمين عُرفوا بطراز معين من العقائد والعبادات والأخلاق، وطراز آخر من التفكير والتدبير والسلوك يشرفهم ويعلي قدرهم، ولم يعرفوا بسلبية ولا أنانية، ولم يُزْرِ بهم جمود ولا طيش.

أريد من المسلمين بين الأطلسي والهادي أن يبدءوا العمل لفوزهم في تلك الميادين المهجورة، وأن تتكون لهم أجهزة دوارة منتجة، ولُوا الحكم أم لم يلوه. المهم أن أبذل وسعي، فإن وصلت إلى هدفي أو مت دونه لقيت الله ومعي عذري ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (الزُّخْرف: ٤١-٤٢).

لقد خُيِّل للبعض أنه يمكن السطو على الحكم بطريقة ما ثم يتحول هذا السطو إلى وجود مشروع عندما يقيم هذا الحاكم بعض شرائع الحدود والقصاص! سيكون الحكم إسلاميا بهذه الحيلة الظريفة.

قلت لأحد المعجبين بهذه الطريقة: إن ذلك معناه أن اللص الكبير يقطع اللص الصغير، أو كما يقول الحسن البصري: سارق السر يقطعه سارق العلانية. وقد كشف النبي ﷺ في سنته أن هلاك الأمم من قبلنا إنما يجيء من هذا المسلك؛ إذا سرق القوي تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد!.

إن الفرعنة مرفوضة قبل تولي المناصب أو بعد ذلك، ومن عجائب العالم الإسلامي وحده أن الحكم من طرق الثراء؛ وقد فكرت طويلا عندما قرأت أن الإسرائيليين أهدوا رئيستهم «جولد مائير» مطبخًا خاصًّا لمناسبة اعتزالها الحكم بعد سنين طويلة.

مطبخ؟! إنه هدية سارّة لديها، قد تكون محتاجة إليه، أما بالنسبة لبعض

موظفينا فهدية محقورة، فكيف إذا كان المطبخ هدية للرؤساء والملوك؟

إن العقل الذي يفكر به الدعاة والمدعوون يجب تغييره، وأستطيع الجزم بأنه ليس عقلا إسلاميًّا.

في هذا الكتاب صور قليلة لمفارقات بين واقعنا وديننا، في الماضي والحاضر، أرجو أن تجد حظها من التدبر والوعي، فإن مستقبلنا منوط بهذه اليقظة.

محمد الغزالي



دعوات تائهة
في أمة مهددة بالضياع

راقبت الأوضاع في أقطار إفريقية ناطقة بالفرنسية وأخرى ناطقة بالإنجليزية، فعرفت كيف مكَّن الاستعمار لنفسه، وكيف وفَّر الضمانات لبقائه وإن جَلَت جنوده عن الأرض.. نعم قد تخلو الأرض منه ولكن سكانها امتلأت نفوسهم به، وارتبطوا ماديًّا وأدبيًّا بمواريثه، فهم راكنون إليه معتمدون عليه!.

ماذا صنع الاستعمار لتحقيق هذه الغاية؟ لقد فرض أولا لغته وجعلها لغة المكاتبات في الدواوين، ولغة الدراسة في جميع المراحل التعليمية ولغة التخاطب المحترم في البيوت والشوارع، وربما هادن اللهجات المحلية إلى حين، ولكنه يعلن مقته للغة العربية، ويتجاوزها في كل محفل، ويؤخر رجالها عن عمد لا سيما إذا كان المسلمون فوق تسعة أعشار السكان، ومن هنا كانت الفرنسية لغة السنغال، والإنجليزية لغة نيجيريا، أما لغة القرآن فهي منبوذة أو مهملة!.

وقد نشأ عن ذلك أن المسلم في هذه الأقطار محجوب عن التراث الإسلامي؛ لأنه مدون باللغة العربية، وأنه إذا رأى أن يقرأ شيئًا عن الإسلام فعن طريق الإفك الذي سطره المستشرقون والمبشرون بإحدى اللغتين العالميتين، الإنجليزية أو الفرنسية..!! ويا ضيعة الأجيال الجديدة!!.

ومع حركة الإفناء المرسوم للغة القرآن الكريم قامت حركة اقتصادية بارعة جعلت الإنتاج صناعيا أو زراعيا في أيدي السادة الأجانب، أو في أيدي العناصر الموالية لهم؛ فهم ملاك الحقول، وهم ملاك الصناعات التحويلية أو التجميعية، وهم مديرو المصارف والشركات.

قديما قال شوقي: «يا مال، الدنيا أنت والناس حيث كنت».. وقد فقه المستعمرون هذه الحقيقة، فدسوا أصابعهم في منابع الثروة ومصارفها، وأشعروا أهل البلاد أن الرغيف الذي يأكلون، والثوب الذي يرتدون، والمرافق التي يستخدمون في أيدي أولئك المستعمرين المهرة، وأن البعد عنهم طريق الضياع.

فإذا جلت الجيوش عن الأرض لأمر ما فلا تمرد هناك ولا تحرر، فأيدي المواطنين هي السفلى في ارتقاب العطاء الذي لا بد منه، وسادة الأمس بالقهر العسكري هم سادة اليوم بالتفوق الاقتصادي والحضاري، ولا معنى لاستعمال العصا إذا كانت الإيماءة بالعين أو الشفتين تكفي للخضوع.

على أن الأمر لا يحتاج إلى التلويح بالقوة؛ فإن الشعوب المغلوبة تتبع غالبيها وتمشي وراءهم مسحورة، وتترك تقاليدها لتقاليدهم وأفكارها لأفكارهم.

ومع أن الإسلام هو الدين الأول في أفريقية، فإن الظروف التعيسة التي مرت بأمته في القرون الأخيرة أمكنت من خناقه وأنزلت به هزائم موجعة، بل أطمعت الملل الخرافية في طيِّ راياته ومحو آثاره..

وهكذا مشي التبشير الصليبي في ركاب الاستعمار المكتسح يريد أن يضرب الإسلام الضربة المميتة!

وأحس أهل الغيرة بخطورة المعركة، ورأوا بعد سبات طويل أن يتحركوا فهل أحسنوا صنعًا، وهل أوقفوا مؤامرات التبشير والاستعمار، وهل أغاثوا الشعوب الصارخة، أو داووا عللها؟ لننظر ما هنالك.

الثقافة الإسلامية في اضمحلال! ولمَ لا إذا كانت الإنجليزية أو الفرنسية اللغة الأولى للدولة والشعب؟ وربما كانت الأولى والأخيرة!.

الجماهير تعاني من الجهل والفقر، وهى تقبل العون من كل عارض له ولو كان مقرونًا بالكفر والفسوق..

التقاليد السائدة ما أنزل الله بها من سلطان، وربما كانت التقاليد الغازية أبعد منها عن الخرافة وأجدى على الناس.

فهل اشتبك الدعاة الإسلاميون مع مصادر الداء، وبذروا بذور الإسلام الحق، وجاهدوا في الميدان الوحيد الذي يتقرر فيه مصير هذا الدين؟

اتصلت ببعضهم لأسمع منه ماذا سيصنع، ورأيت الاكتفاء بالسماع وعدم الخوض في أي جدال..

قال داعية من رجال الجهاد الإسلامي: إن تعطيل الأحكام الشرعية سبب ما نزل بالأمة من بلاء، ولا بد من محاربة هذه الجاهلية، وإزالة الطواغيت التي تساند هذا الكفر!.

وقال داعية من رجال السلفية: إن تأويل الآيات جعل القلوب تزيغ، ثم انضم إلى ذلك التقليد المذهبي وهجر السنة المطهرة تمشيًا مع آراء الرجال، وانتشار الطرق الصوفية، ولا تصلح الأمة ما بقي هذا الانحراف.

واستمعت إلى كلام هذا وكلام ذاك، وأحسست أن القوم لن يكيدوا عدوًا ولن يكسبوا معركة؛ إنهم لم يدرسوا الميدان الذي توجهوا إليه ولا الجحور التي تنطلق منها الأفاعي، إنهم كالطبيب الذي جاءه مصاب في رأسه فصنع له جبيرة على قدمه!.

وأطرقت أفكر في عواقب هذا الجهاد الطائش، وقال لي صديق: ما ترى؟ قلت: لن يمضي عام على تحرك هؤلاء حتى تشيع الحزازات في البيوت والمساجد، وتدخل طوائف من الشباب السجون، ويزداد الاستعمار والتبشير ضراوة ورسوخًا.. وصدق حدسي وليته ما صدق، ووجدتني محاطًا بقضايا ومشاكل تثير الغثيان!.

أصحيح أن الأكل على المائدة حرام، ويجب أن نأكل على الأرض إقامة للسنة؟ قلت: إن الله أنزل مائدة على أصحاب عيسى، وما أظنه حظر على أصحاب محمد أن يأكلوا على مثلها -وكنت أضحك بمرارة- ثم قلت: ترى هل تشترى المائدة من لندن أو باريس، أم أن الصناعة المحلية ارتقت عندكم؟

وجاء آخر يسأل: هل في ارتداء البدل الفرنجية تشبُّه بالكفار يُلحقنا بهم؟ قلت: التشبه المنكور يكون في العقائد والخلال لا في الملابس والنعال..

وحدث أن خطيبًا على منبره قال لرجل دخل يصلي الجمعة: قم فصلِّ تحية المسجد، فقال الرجل: نحن مالكية تبطل عندنا هذه الصلاة!! فقال الخطيب المفوَّه: أتترك محمدًا وتتبع مالكا؟ وكانت فتنة مائجة قرَّتْ لها عين الاستعمار!.

وتدخلت لأؤكد أن أئمة الفقه لا يقدِّمون بين يدي الله ورسوله، وأن الاختلاف يكون في تفسير ما ورد أو في قيمة ثبوته، وما يفكر أحدهم أبدًا في مخالفة رسول الله ﷺ.

وبلغني أن أولياء فتاة ألغوا خطبة شاب رفض إهداء أساور من ذهب لابنتهم؛ لأن ذلك في نظره حرام.

وطُرِدَ شابٌ من الجامعة لأنه أصر على دخول المعهد بثوب لا يبلغ الكعبين.

وكانت الدعوة إلى الجهاد، وإقامة حكم إسلامي غامضة، لا تدري شيئًا عن حقوق الشعوب ولا ضمانات الحرية ولا قيام أحزاب، ولا حرية الانتخابات.

وإذا كان المسلمون قد تراجعوا في أنحاء العالم وسقطت دولتهم الكبرى في غير ميدان لمعاصٍ اجتماعية وسياسية اقترفوها وتوارثوها، فإن الدعاة الجدد لم يكلفوا أنفسهم دراسة خطأ ولا تصحيح مفهوم.. ولذلك كثر صياحهم وقلَّت جدواه، واضطراب الفكر الإسلامي في دَرَكٍ هابط لا يثمر خيرًا في دين أو دنيا.

والواقع أن الاستعمار الصليبي جلا من تلقاء نفسه عن أقطار إسلامية وغير إسلامية دون قتال ولا تضحيات لأنه كان شديد الوثوق من أن هذه الأقطار ستظل ذيولا له، تستمد منه وتعتمد عليه.

إن الأبصار الكليلة لا تدرك الدعائم التي تقوم بها الرسالات، وتستقر بها السياسات، ولا تعرف قيمة الاستبحار الثقافي أو الازدهار الحضاري

والصناعي في نصرة الحق وإعزاز أهله، وفرض أخلاقه وأهدافه.

ولنتدبر هذا المثال لما يقع بعيدًا عن أرضنا ومجتمعنا:

من بضع سنين أُعلنت حالة الطوارئ في الولايات المتحدة، وسيطر الانتباه على أعصاب الناس وأفكارهم! ماذا حدث؟ أإنذار بهجوم ذري أم إعصار بحري من تلك الأعاصير التي تخلف وراءها الدمار؟ لا هذا ولا ذاك، الذي حدث أن أولي الأمر كانوا مسترسلين في الإيمان لعظمة أمريكا وسبقها البعيد، ثم اكتشفوا بغتة أن الاتحاد السوفيتي قد سبقهم، وخلفهم وراءه في ميادين علمية كثيرة!

وصدر الأمر بإنعام النظر في برامج التعليم كلها، ومراجعة كل شيء من المرحلة الأولى إلى درجات التخصص، وانشغلت الحكومة والشعب بهذه الكارثة، وضرورة السعي الحثيث لطيِّ مسافة التخلف وإعادة التفوق القديم..

ولم يمكث القوم غير بعيد حتى حققوا ما أرادوا، وهم الآن في تمام تجاربهم لما يسمى بحرب الكواكب، سيقول الناس: عبقرية علمية جديرة بالإعجاب، وهذا صحيح! والأجدر بالإعجاب عندي هو الشعور بحدة المنافسة ووجوب السبق.

إذا كانت القدرة العلمية تستدعي الثناء، فإن الأحوال النفسية المصاحبة من اعتراف بالقصور وشحذ للهمة واعتداد بالنفس، وحرص على النجاح، كل ذلك لا يجوز إهماله!

ترى ما طبيعة هذه الأمة؟ أتظن نفسها ممثلة العالم الحر فلا يسوغ أن يهزمها القابعون وراء الستار الحديدي؟ ربما، أتظن نفسها على نصيب من الإيمان بالله وكتابه المقدس فلا يجوز أن يهزمهم الملاحدة؟ ربما، أم هي كبرياء الثروة والسلطة والنصر المتتابع؟ ربما، قد يكون ذلك كله أو بعضه وراء مكانة الصدارة التي نالها شعب الولايات المتحدة.

على أننا لا ننسى، ومن الخساسة أن ننسى، أن هؤلاء الأمريكيين قتلوا نصف مليون ياباني لإثبات وجودهم، وأنهم من الناحية الدينية رصدوا قناطير مقنطرة لنشر الصليبية، وقناطير مثلها لدعم اليهودية ومحو فلسطين!! لقد عادَوا الإسلام بغير وعي.. وهاهم أولاء يسيرون نحو هدفهم بالتفوق العلمي في البر والبحر والجو، فبماذا نسير نحن إلى أهدافنا؟ وإذا أعلنا حالة طوارئ لاستدراك ما فاتنا، فما التغيير الذي نحدثه حتى يتغير ما بنا؟ مصداق قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾ (الرَّعد: ١١).

إن طلاب العلم في مدارسنا وجامعاتنا يحفظون إلى حين بعض المذكرات والملخصات حتى إذا جاء الامتحان كتبوها على ورقة الإجابة، ثم تنقطع صلتهم بالعلم.. وهناك رجال رزقوا لذة المعرفة، وبرزوا في العلوم التي درسوها حتى بلغوا القمم، ويحزننا أن جمهورًا من هؤلاء التحق بأوربا وأمريكا مؤجِّرًا علمه لمن يقدرونه ماديًّا وأدبيًّا.. وهذا بلاء عظيم وخسار فادح، ووددت لو عالجنا هذا المسلك برشد وتؤدة، فإن ضياع ثروتنا البشرية أهم من ضياع الثروات الأخرى.

لكنني لا أترك قضية اليقظة النفسية والفكرية دون أن أبيِّن خطرها على حاضر الإيمان ومستقبله، وذلك أن الطفولة العقلية السائدة بين متحدثين إسلاميين يُخْشَى منها على أمتنا، بل يجب أن نعلم أنه لا مستقبل لنا ما بقي هذا الاسترخاء الفكري والخلقي يصبغ شؤوننا.

إن العمل الصالح ذكر في القرآن الكريم ضميمة لا بد منها مع الإيمان كي يفلح المرء في دنياه وآخرته، فما هذا العمل الذي تكرر ذكره أكثر من سبعين مرة؟

بعض الناس يتصور أن العمل المنشود هو العبادات المرسومة المأنوسة لا يعدوها إلى غيرها، وإذا كان هناك توسع في الدلالة فإن دائرة الصالحات

تشمل شئون الدنيا عندما تصحبها النية الحسنة، وهذا التوسع وصف لبعض الخاصة من أهل الدين..

وأحسب الأمر يحتاج إلى إيضاح وتدقيق، فإن كلمه «الصالحات» تتسم بالشمول الذي يتناول كل شيء، ويستوعب فيه ما حدد الشارع كيفيته وهيئته، وما تركه لاختلاف الأزمنة والأمكنة تباشره النفس الإنسانية لتضع عليه بصماتها المؤمنة وتسوق به الحياة إلى الهدف الذي تشاء.

بعض الناس إذا ذكرت النقود، ذكر الدينار والدرهم أو الدولار والجنيه، وإذا ذكر الدين ذكر الصلاة والصيام، وما يدري شيئًا عما وراءهما.

واقتصار التدين على نوعين أو أكثر من الطاعات المأثورة إزراء بحقيقة الدين، وطمس لرسالته وآثاره، وإعطاء الشيطان مساحات رحبة يجري فيها كيف يشاء..

تلوتُ سورة القصص، وربطت آخرها بأولها، فرأيت أن الله سبحانه شرح أحوال الاستبداد السياسي والطغيان الاقتصادي في قصتي فرعون وقارون، ثم ساق هذا القانون الحضاري الصارم ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (القَصَص:٨٣).

إنه بعد عشر صفحات من السرد التاريخي الحافل قرر هذه الخلاصة؛ أن الاستعلاء والفساد يستحيل أن يأتيَا بخير، كل فرد مزهو بنفسه فوضوي في سلوكه، سائب في إدارته، ظالم لغيره، ناسٍ لربه لا بد أن يجني الويل من هذه الخلال.

إن عناصر العدل السياسي والاجتماعي من صميم الأعمال الصالحة، ولن ينزل الوحي ليعلم المدير كيف يدير، أو المدرس كيف يعلِّم، أو الصانع كيف يبدع، أو السائق كيف يحترم الطريق، فذلك كله تهتدي إليه الفطرة

المؤمنة، وتندفع إليه بالذكاء الطبيعي، ومن ثم اقترن الإيمان والعمل الصالح..

هذا العمل الصالح تنداح دائرته لتشمل الدنيا كلها، وحرية الحركة فيه مطلقة ما تستثني منه إلا المأثورات التي جمَّد الشارع قالبها عندما قال مثلا: «صلُّوا كما رأيتموني أصلي».

وهذه المأثورات القولية والعملية قليلة، ووقتها محدود.. أما بقية الأعمال الصالحة فلا تكاد تحصر، إنها الحياة كلها، وحسب المسلم في شرح موقفه منها أن يتدبر الآية الكريمة ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ (الأنعام: ١٦٢).

وهناك ملحظ مهم؛ فقد يعتري العبادات المقررة ما يطيح بثمرتها ويبطل جدواها، وذلك عندما تتحول إلى عادات بدنية تُؤدى خلال غيبوبة عقلية، والحق أنه لا خير في قراءة بلا وعي، ولا في ركوع بلا خشوع.

ومع أن الصلاة عمل من قمم الشرف الإنساني فإنها آخر ما ينحل من عرى الإسلام، والسبب هو هبوطها عن درجة مناجاة الله إلى أقوال وأفعال ميتة لا تؤكد يقينًا ولا تؤسس خلقًا.

وعندما تنحط العبادات إلى هذا المستوى فإن أعمالا بدنية أخرى تشتد فيها حرارة الإخلاص ويتألق فيها حسن القصد تكون أرجح عند الله، وأجدى على الحياة من هذه العبادات العليلة.

وأكره أن أوزان بين عبادات معتلة وعادات رفيعة؛ لأن العصر الذي نحيا فيه واهي الصلة بالله، وما أيسر أن يزهد مغرور في تنفيذ أوامر الله بدعوى أنه يقوم بأعمال صالحة أخرى.

وإنما أبَحْتُ لنفسي أن أكتب ما كتبت زجرًا للمؤمنين الكسالى أن يسيئوا إلى الطاعات بجفافهم الروحي، وخوائهم العقلي، وتحويلهم معالم التقوى

إلى عالم من الأشباح يختفي إذا جد الجد.. وأدهى من ذلك أن يتشبثوا ببعض الأعمال ويهملوا بعضًا آخر.

إنه لو قضى عمره قائما إلى جوار الكعبة، ذاهلا عما يتطلبه مستقبل الإسلام من جهاد علمي واقتصادي وعسكري، ما أغناه ذلك شيئا عند الله. إن بناء المصانع يعدل بناء المساجد!! فحراسة الحق كتعليمه، وإقامة سياج حوله، أيا كان هذا السياج لا يقل عن الاعتناء بنصوصه.

المسلم مكلف بإصلاح كل عمل، أو عمل كل صالح، وهذا الانشطار المعيب في السلوك البشري مرض طرأ على أمتنا من انحراف القرون؛ لأن تعاليم الإسلام ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ (النحل: ٩٧).

وأول ما أصاب النفس الإنسانية من عطب توهمها أن الصالحات لا تعدو رسوم العبادات المروية، فإذا أحرز المرء نصيبا منها وأراد المزيد كرر الصلاة وكرر القراءة؛ لأنه لا يعرف صالحات غير ذلك.

وما دري أن ميدان الصالحات يستوعب حركاته وسكناته كلها، ويحولها إلى قوى تدعم الخير؛ لأن الصلاح تغير نفسي شامل يفرض على صاحبه حب الكمال والرغبة في الإحسان.. فهو يتقلب في الدنيا كما وصف الله ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ (لقمان: ٢٢).

إن الشلل الذي أصاب أيدي المؤمنين في ساحات الإنتاج، وحجب عيونهم عن الملاحظة الذكية، وجعلهم يجار عليهم ولا يجيرون، ويؤخذ منهم ولا يعطون، ويتقدم غيرهم ويتأخرون.. إن هذا كله حط قدرهم وقدر الذين معهم.

وقد رأينا الولايات المتحدة الأمريكية تعلن الطوارئ لأنها توهمت الروس

سبقوها في بعض آفاق المعرفة، وصرخت أجهزتها الرسمية والشعبية منذرة بالويل إذا لم يقع تغيير عام. فهل أعلنا حالة من حالات الاستنفار والتفزيع بعدما تدحرجنا إلى العالم الثالث واقعًا مرًّا لا خيالا طائفيا؟!.

والغريب أن الذين استيقظوا أو زعموا ذلك لم يقطعوا القيود التي جمَّدت المواهب، ولم يشخصوا العلل التي أعجزت الأمة، بل سلكوا طرائق هازلة: فمنهم من تخصص في محاربة الفقه المذهبي في الوضوء والصلاة، ومنهم من جدد الحرب على الجهمية والأشاعرة، ومنهم من ذهل عن أصول الحكم وقواعد السياسة الراشدة وتخصص في طلب بعض الأحكام الفرعية، ومنهم من عاد إلى التصوف غارقا في وحدة الوجود، ومنهم ... إلخ.

والأمر يحتاج إلى فهم صاف صادق لما يتطلبه الإسلام في الميادين التي انهزم فيها المسلمون روحيا وحضاريا، وكيف نلحق من سبقنا، ونربو عليه بما لدينا... ولنبدأ بميدان العلم بعد هذا التمهيد الطويل... فإن أنكى ما أصابنا جاءنا من الجهل الكثيف بشئون الدنيا والدين، أو بحقائق الأرض والسماء.



لماذا جفت ينابيع هذا العلم؟

هذه طرفة جديرة بالتسجيل والتأمل نقدمها بين يدي بحثنا!

في جامعة تونس أستاذ فرنسي كان يدرس علم الضوء أو البصريات كما يسمى في ثقافتنا القديمة، وكان الأستاذ معجبًا كل الإعجاب بقانون «الهازان» الذي اكتشفه أحد علماء العصور الوسطى وسبق به سبقا بعيدا، وفتح به فتحا جديدا..

وسأله الطلاب: لكن مَنِ «الهازان» هذا؟ فقال: أظنه من كبار العلماء الأسبان!.

وذهب الطلاب إلى الدكتور بشير التركي -وعنه نقلنا هذه الطرفة- فأجاب الرجل وهو دهش: «الهازان» هذا هو الحسن بن الهيثم العالم العربي المسلم الشهير، وهو راسخ في علم البصريات، وله نظرات يضارع بها أعظم علماء عصرنا، ولا تقل مكانته عن آنشتين وأمثاله؛ لأن العالم ما زال ينهل من كشوفه وأحكامه، وقد يبقى العالم معتمدا عليه ألف سنة أخرى.. وهو من أول الأساتذة الذين درسوا في الجامع الأزهر.. قال الدكتور بشير: وأما قانون الضوء المنسوبان إلى ديكارت فحسن بن الهيثم هو صاحبهما وواضعهما قبل ديكارت بستة قرون، وكتابه علم المناظير لا يزال مرجعا في موضوعه.

وذهب الطلاب إلى الأستاذ الفرنسي بهذه الإجابة فلم ينطق بكلمة، وكل ما حدث منه أنه أضرب إضرابا تاما عن الإشارة من قريب أو من بعيد إلى «قانون الهازان هذا»، فما ذكره بخير ولا شر..

وظاهر أن الأستاذ قد بوغت بعظمة عالم مسلم وهو يمقت الإسلام من الأعماق فلاذ بالصمت، وطوى القصة كلها..

على أنني عدت إلى نفسي وإلى قومي أوجه اللوم بعد اللوم، وأتساءل بغيظ: فما مكانة الحسن بن الهيثم في تاريخنا؟ وما مكانة غيره من علماء الحياة والكون كجابر بن حيان والخوارزمي؟.

إننا قبل أعداءنا كنا أسرع إلى إهالة التراب عليهم، ربما ظفر بالشهرة أبو نواس قديما وعبد الحليم حافظ حديثا، أما الراسخون في العلم فهم يسيرون إلى جوانب الجدران، وينسحبون من الحياة كما جاءوها على استحياء، أو في استخفاء..

ولنترك الآن أنواع العلوم التي انشغل المسلمون بها، والتي ظنوها للأسف هي العلم الجدير بالتحصيل والتفرغ، ولننظر: ماذا كسبنا من قلة الدراية بالعلوم المادية والرياضية والكونية والصناعية وغيرها؟ وأين استقرت بنا النوى بعد رحلة في العلوم النظرية والقضايا الترفية استغرقت عدة قرون؟.

ذكرت في مكان آخر خبر رحلتي إلى عاصمة «موريتانيا» الإسلامية، وكيف أن بعثة صينية شيوعية هي التي اكتشفت المياه الجوفية التي تغذيها الآن! ناس يأتون من آخر الدنيا شرقا إلى شاطئ الأطلسي غربا لهم خبرة في علم المياه تتيح للعطاشى أن يرتووا وهم في بيوتهم، وأن يرتفقوا كيف شاءوا بالسائل القريب البعيد، ترى أين كنا وماذا نصنع؟!. وما يقال في الماء يقال في النفط، ويقال في كل المواد المدفونة تحت الثرى أو المهملة فوقه.

أليست هذه كلها مما يدخل في نطاق التوجيه القرآني ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾؟ (الأعراف: ١٨٥)

أليست هذه شيئا ينظر فيه، وتلتمس الحكمة من وجوده، وتدرك عظمة الله من خلقه؟ لماذا يكون بصر الآخرين إليها حديدا وبصرنا إليها بليدا؟! وما ثمرة ذلك التوقف الأخرق؟.

إن الله جعل معرفته والحفاظ على حقوقه مربوطين بدراسة الكون، والتمكن فيه، فإذا كنا خفافا في هذه الدراسة، أو كنا ذيولا لغيرنا، فهل نحن بهذه الحقيقة عارفون بالله، قادرون على صيانة حرماته؟.

يقول الله عن الناس: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ ﴾ (التَّغَابن: ٢) فأي تناقض مذهل إذا مشي الكافرون بين مخلوقات الله وهم يسبرون أغوارها ويعرفون أسرارها ويجيدون استخدامها، ومشي المؤمنون بين هذه المخلوقات لا يكادون يفقهون حديثا أو يحسنون صنعا؟ كل ما يجيدونه هو الحوقلة والتواكل، فإذا بدا طمع شخصي طاروا إليه بسرعة البرق..

ويقول الله في آياته الدالة عليه، المتجدد منها والموجود الآن ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ ﴾ (فُصِّلت: ٥٣).. فتسأل من الذي رأى الآيات السابقة ثم رأى الآيات اللاحقة، إن أولي الألباب يرصدون الزمان ويعرفون ما يكون وما كان، وتتحرك أفكارهم وأحكامهم مع اختلاف الليل والنهار..

وقد رمقت بأسى سدنة الإلحاد وسدنة الشرك ولمحت نشاطهم الذهني والبدني في غزو الفضاء، ثم عدت إلى قومي فجف حلقي وخرس صوتي: أين هذه العلوم بيننا، وما الذي أبعدها عنا؟!.

قد يقول البعض: الدين تعريف بالله وتبصير بحقوقه، فلماذا تذهب بنا بعيدًا؟ والجواب السريع: أن القرآن لما عرفنا بالله عرض علينا ملكوته، ولفتنا إلى أرضه وسمائه. والواقع أن أحسن تعريف بعظمة الله أن نعرف العالم الذي أقامنا الله فيه، وجعل رسالتنا في نطاقه.

قرأت أن المخ البشري يزن كيلو جراماً وربعا، وأن به عشرة مليارات من الخلايا، لكل خلية غذاؤها وبقاؤها وأجزاؤها ونماؤها أو فناؤها، قلت: وفي الأرض نحو خمسة مليارات من البشر! مَنِ القائم على إيجاد وإمداد كل خلية من هذه الخلايا، وتوجيهها لتؤدي وظيفتها الدقيقة، من؟ وهتفت:

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾ (الأَعْلَى:١-٣).

إن شعرة واحدة من مائة ألف شعرة تنمو على بشرة إنسان أو حيوان تفتقر إلى العناية التي تفتقر إليها كل شجرة تنبت على ظهر الأرض بين خط الاستواء والقطبين..

ولا أفيض في حديث أنا فيه قاصر، فقيام الأشياء بربها ما ندري منه إلا قطرة من بحر، وأظن ما وصل إليه العلم في نصف القرن الأخير يساوي أو يربو على كل ما حققه العلم في القرون الأولى.

والمهم هو المنهج الذي اختاره العلماء للكشف والبحث.. والمسلمون الأوائل عرفوا ثلاثة مناهج، ذهب أجداها وأدناها إلى المنطق القرآني وبقي اثنان خيرهما قليل وعناؤهما ثقيل، ولهما بالقرآن الكريم علاقة ما، وإن كانت علاقة يطول فيها الأخذ والرد.

ذهب المنهج الذي سلكه ابن الهيثم في البصريات والخوارزمي في الرياضيات، وغيرهما من الرواد أصحاب الفطر السليمة، وبقي منهج احتضنه علماء الكلام، وآخر احتضنه علماء التصوف، وكلاهما له أنصاره وثماره، وما نحب الجور ولا المغالاة ولا انتقاص الكبار، وما نحب إلا إنصاف ديننا وتبرئته من عيوب هو منها بريء..

أنا ممن يرون أن ابن سينا الطبيب أذكى من ابن سينا الفيلسوف، وقد انتفع الأوربيون بطبه خلال ثلاثة قرون، فماذا أفدنا نحن من فلسفته؟ تسلية ذهنية ذكية عقيمة!!.

وأنا ممن يرون أن الفارابي الموسيقي أذكي من الفارابي المعلم الثاني! قد تكون ألحانه الشجية مسعدة للناس بعض الوقت، أما خرافة العقول والأفلاك التي أعجب بها مع ما أعجب من فلسفة اليونان فهراء ما كان يليق بالعقل الإسلامي أن يتورط فيه، أو يقف بإزائه.

إن العقل الإسلامي لو التزم الخط القرآني المشغول بالملاحظة والتجارب المهتم بالتنقيب والحقائق، الجَوَّاب في آفاق الأرض والسماء لكان له شأن

آخر، ولقدم نجدات صادقة مثمرة للمنهج العلمي الكوني الباحث في المادة لا فيما وراءها.

ونظرة سريعة إلى المنهج العاطفي الصوفي الذي أيده الغزالي بحرارة ومشت فيه جماهير المسلمين بإخلاص، بيد أني -قبل إلغاء هذه النظرة- أريد توكيد حقيقة جليلة: أن العلم بالله أشرف ألوان العلوم، وأن المعارف الأخرى إن لم تكن وسيلة إليه فلا خير فيها..

إن المرء يفقد قيمته الأدبية والمادية يوم يكون نابغة في فن ما أو في الفنون كلها، ثم هو بالله جاهل وعليه جريء...

والعباقرة الذين يضعون أصابعهم على زناد التفجير الذري، وينذرون بإهلاك الألوف المؤلفة لغرض خسيس ليسوا إلا قطعانا من الذئاب الكاسرة أهانوا العلم ولم يكرمهم العلم!!

نحن نحترم علوم الكون والحياة، ونرى أنفسنا – باسم الله – مطالبين بافتتاح مغاليقها والتبريز فيها، وذلك كله نابع من إعزازنا لربنا، وحفاوتنا بصنعه، وتلبيتنا لطلبه أن نفكر ونستنتج. والذي يدرس الكون بغير هذه النية كالذي يدرس قصرا مشيدا ليسرقه، أو سيارة جميلة ليفر بها.

بعد توكيد هذه الحقيقة أعود إلى المنهج الصوفي القائم على التأمل الباطني، والاستغراق الذاتي، وتحويل العلاقة بالله إلى ذكر لأسمائه الحسنى يحصَى بالألوف المؤلفة، فإذا سكت اللسان تلفَّت القلب وأشرقت البصيرة.

ليس هذا النهج ما أفدناه من كتاب الله وسنة الرسول، بل أجزم بأن العزلة الفكرية عن الكون انحراف عن الخط الإسلامي، وفرار من تكاليف اليقظة الذهنية التي فرضها علينا القرآن، بل قد تكون طريق العجز عن مقاومة الباطل ومؤازرة الحق..

ثم إني أرتاب في أن ترداد الألفاظ المفردة أو الكلمات المركبة يورث علما عظيمًا أو يرفع صاحبه إلى مستوى عالٍ من شهود المجد الإلهي، وقد يكون هذا الأثر الجليل عقب قراءة كتاب في الطب أو في الفلك أو في أي أفق من آفاق الكون الكبير.

إن أولي العلم هم الخبراء بالله، الشائمون لأنوار وجوده، والمراقبون لقيامه على خلقه.

وأبو حامد الغزالي له سهم كبير في الدراسات الطبيعية والمادية، وقد وصف عجائب الخلق وصفَ رجلٍ مطلع، بل إن وصفه للعين البشرية يقترب من العلم الحديث، ولعل ذلك هو الذي أعانه في خلوته أو آنسه في عزلته..

وعلى أية حال فنهج القرآن لا يتقدمه نهج أحد، ويستحيل أن يحمي المسلمون دينهم، وأن ينضج إيمانهم بربهم إلا إذا تفقهوا في آيات الله العيانية والبيانية جميعا، وازدهرت لهم حضارة مدنية وعسكرية تغلب ولا تغلب وتقود ولا تُقاد.

هل لنا نصيب من العلم نقطع به هذا المشوار الطويل؟ تلفتُّ حولي ثم أطرقت واجما! إن النصيب الذي لدينا هو ما يرميه خصومنا إلينا، فنحن على فضولهم العلمية نعيش!.

لقد استعدنا سيناء على النحو الذي عرف الناس، فما استطعنا إلى الآن أن نبني قرية مثل «ياميت» تستنبت البقول والورود في الهواء وتصدر نتاجها إلى أوربا، والعلم الذي فقدناه هو الذي فقده الجزائريون لما هبطت محاصيل الحبوب بعد الاستقلال، وهو الذي فقده السودانيون الذين يجوعون فوق أخصب أرض، وهو الذي فقده المسلمون على التعميم لما مشوا تحت الشمس وعلى أبصارهم غشاوة.

ألا يضحك الشيطان طويلا عندما يرى جهازًا علميًّا ضخما عند الملاحدة الذين يرفضون عقيدة الألوهية، وجهازا علميا ضخما عند المشركين الذين

يجعلون الآلهة مثنى وثلاث ورباع! فإذا جاء أرض الإسلام لم ير إلا علما مستوردًا من هنا ومن هناك، لأنه لا منابع له في أرضه!!.

وقد حرص الأوربيون والأمريكيون على أن يظل هذا العلم منقولا لا معقولا، مجلوبا لا أصيلا، مشترى لا مكتسبا حتى نظل فقراء إليهم أبدا، ما نستطيع من قيودهم فكاكا..

يقول الدكتور بشير التركي: «في العهود الأولى للإسلام أقام المسلمون صناعات جديدة عديدة في ميادين شتى، فبعد أن أخذوا كل ما وصلت إليه الحضارات السابقة أبدعوا من جهودهم ما أربى عليها، وصهروا ذلك في صناعة متطورة كانت دعامة مكينة لليقظة الإسلامية التي شملت العالم أجمع، بل كانت طورا عظيما في الارتقاء العالمي..

ثم سرعان ما تدهورت هذه الصناعة الإسلامية، وصارت أثرا بعد عين، وربما رأى الناس بقايا منها في الصناعات التقليدية التي يراها السائحون الأجانب.

أما الغرب فقد احتكر لنفسه في العصور الأخيرة كل الصناعات التجميعية والتحويلية الموجهة للاستهلاك! أما الصناعات الكبيرة فقد أحكم قبضته عليها واحتفظ بأصولها لديه؛ إنه يبيع المحرك مثلا ولا يبيع كيفية صنعه، ولا أسرار تكوينه وحفظه وإدارته، ومن ثم يبقى المسيطر على سوق المحركات، يبيع فيها قطع الغيار ووسائل الصيانة ومختلف الخدمات، وهذا كله في جميع الميادين المدنية والعسكرية!.

أي أننا نركب سيارة أنتجها هو، ويظل ارتفاقنا بها ما بقي يرسل قطع الغيار ويضمن وسائل الصيانة.. وكذلك قد نتقاتل في دبابة أو طائرة من صنعه، لكن قدرتنا على القتال مرهونة بتعهده أن يمدنا..!!.

وفي ميـــدان الإعـــلام ترى كل أجهزة الإرســال والاستقبال، السلكية واللاسلكية والمواصلات، وتخزين المعلومات واستخدامها والآلات الحاسبة...

إلخ، كل ذلك حكر للغرب وحده، وتأخذ منه بقدر ما يأذن، فإذا طردك عن بابه بقيت صفر اليدين..

أين الصحوة الإسلامية في مظاهر هذا العوز؟ أين العلم الذي يسعفنا ويقيم لنا صناعة مستقلة؟ أين العلم الذي يصون عقائدنا وآدابنا ويجعل يدنا العليا؟ أين العلم الذي يحكم علاقتنا بكتابنا وينقلنا إلى جوه الممدود بين الأرض والسماء؟ أين العلم الذي يقدرنا على أن نثير الأرض ونعمرها كما أثارها وعمرها غيرنا، بل أكثر منه؟

إن العلم الذي يوحي به الدين عند جمهور المسلمين شيء آخر قريب من الموت والاستسلام والضياع، وذلك هو ذل الأبد!.

وليتأمل القارئ المسلم في هذه القصة التي تحوي ما وقع بين الولايات المتحدة واليابان عقب انهزام الأخيرة في الحرب العالمية الثانية، لقد قرر الأمريكيون أن يضعوا أيديهم على الخبرة اليابانية في عالم الإلكترونيات، وأن يوجهوا النشاط الياباني إلى إنتاج أجهزة الإعلام السمعية والبصرية لتباع بأرخص الأسعار على حين يستبقون الأجهزة الدقيقة الأخرى، والخبرة العميقة بها حكرًا عليهم وحدهم، كأجهزة الرادار والحاسبات الإلكترونية والكمبيوتر، وما لا نعلم من أدوات عسكرية!.

غير أن العلماء اليابانيين فطنوا إلى الخطة الاستعمارية الماكرة، وقرروا نقل هذه الصناعة الرفيعة من طور الاستهلاك العادي إلى طور آخر أرقى وأذكى، وأن يحكموا قبضتهم القومية على جملة هذه العلوم..

ونجحت المشيئة اليابانية، ولم تعقها الهزيمة العسكرية الهائلة دون الانطلاق إلى الغاية المنشودة، وأمست اليابان البلاد الإلكترونية الأولى في العالم كله.

والعجب أن المركز الإلكتروني الأمريكي «سليكون فالي» الذي كانت الولايات المتحدة تريده مهد هذه الصناعة للقرن الحادي والعشرين أضحى

متخلفا عن المؤسسات اليابانية المعاصرة. لقد سبق اليابانيون سبقا بعيدا، واعترف لهم نظراؤهم وأعدائهم بالتفوق؛ ذلك لأنهم ثابروا وصابروا حتى حققوا ما شاءوا!.

هل تحسب أن الذكاء الياباني وحده وراء هذا النجاح الرائع؟ كلا! إن الاستقرار النفسي والاجتماعي في طول البلاد وعرضها كان نعم العون في ذلك المضمار؛ كأن الحكومة جسد روحه الشعب، أو كأن الشعب جسد روحه الحكومة، لا انشطار في عزم ولا اختلاف على هدف ولا تحاقد على منصب!.

أما اليقظة التي عاصرت الصحوة اليابانية في العالم الإسلامي فقد تبددت قواها في الصراع الداخلي، وذهبت جهود هائلة في الدفاع والهجوم والأخذ والرد والإقرار والإنكار؛ إذ إن حكومات كثيرة كانت تريد نظاما علمانيا، وترفض استدامة الفكر الإسلامي، وكانت الشعوب وجلة من هذه الطلائع المتمردة على عقائدها وتقاليدها، ووقعت الأمة المسكينة بين «كماليين» يمقتون الإسلام، وإسلاميين يخلطون الوحي بالخرافة والجد بالهزل، وعندما يقع بأس الأمة بينها فهيهات أن تفلح في جلب منفعة أو دفع مضرة.

إن اليابانيين لم يخاصموا دينهم –على ما به– ووجهوا قدراتهم كلها لكسب معركة الحياة، فكسبوها. أما المسلمون فقد استمكنت منهم الدسائس الصليبية والصهيونية، وكان التدين في أفكارهم ومسالكهم قد ابتلي بالعفن، فغشيهم من العدو ما غشيهم!.

ويشاء الله أن أشعر بالقهر وأنا أخط هذي السطور؛ لأن الإذاعات المحلية والعالمية تنقل إلى ما يقع الآن قريبا مني في تونس، إن الذي وقع لم يخطر ببال وكان صداه لاذعا موجعا..

لقد استطاع اليهود الجاثمون على صدر فلسطين أن يرسلوا من مكان

احتلالهم ثلة من الطائرات المقاتلة، قطعت آلاف الأميال في الجو، وأمدت بالوقود وهي سابحة في السماء، حتى إذا بلغت تونس تعرفت على مقر هيئة التحرير الفلسطينية وسط آلاف البيوت، ثم شرعت ترجمه وما حوله بالقذائف حتى أحالته أنقاضا!!.

وبعد أن قامت بما تشاء على خير وجه عادت أدراجها إلى فلسطين قاطعة آلافا أخرى من الأميال بعد نزهة لطيفة قتلت فيها نحو سبعين عربيا وجرحت مثلهم، هذا كل ما حدث.

ولم أشغل نفسي بسماع التعليقات الماجنة والغثة من الأصدقاء والأعداء؛ فإن عجزنا لا يحتاج إلى عزاء، وقدرة خصمنا لا يغض منها تهوين، واحتقار مجلس الأمن العالمي لقضايانا لا ينجح فيه تستر.

وظاهر أن رسوخ عدونا في علوم الكون والحياة جعله يطوي المسافات الشاسعة، ويلطمنا كلما أحب، إن ضراوته بنا كضراوة الصائد الذي يطلق بندقيته على أسراب الطير والأنعام لينال منها ما يشتهي!.

أما نحن فقد جعلنا الجهل نماذج للعجز، نظلم فلا نقتصّ، ونضام فنستكين..

ولا يقيم على ضيم يراد به   إلا الأذلان غير الحي والوتد!

هذا على الخسف مربوط برمته   وذاك يشق فلا يرثي له أحد!

هل نعود إلى بنياننا الحضاري لنعيد له رسوخه وشموخه بالعلم الحق والدراسة الناضرة؟.

إن لغتنا العربية تكاد تكون خالية من علوم الطب والصيدلة والأحياء وأغلب فروع الهندسة والكيمياء وعلوم الفضاء، والآليات والإلكترونيات وفنون القتال في البر والبحر والجو.. أفبهذا الفراغ نحمي دنيانا ونحرس إيماننا ونرد أعداءنا ونصون حمانا؟!

سمعت من إذاعة لندن خبرا بعثني على الدهشة، فقد تمخضت الانتخابات التي وقعت أخيرا في ولاية «آثام» عن سقوط الحكومة، ومجيء حكومة أخرى! الحكومة الجديدة أعضاؤها من طلبة الجامعات!! والحكومة التي ذهبت كانت من حزب المؤتمر الهندي الذي يتولى الأمور في عموم الهند.

وما حدث يدل بداهة على نزاهة الانتخابات، وعلى استقرار «الديمقراطية» في القارة الهندية، ولكنه يدل في الوقت نفسه على أن الجماهير تقترف الغرائب! والأمر يحتاج إلى شرح يسير..

إن هذه الولاية تجاور «بنجلاديش» الإسلامية، ويفر إليها باستمرار أعداد من المسلمين الذين تطاردهم الفيضانات والعواصف وأنواع المصائب..

وما يكاد هؤلاء المنكوبون يستقرون ويجدون لهم مرتزقا حتى يهجم عليهم أهل الولاية الأصليون ويديرون عليهم رحى الموت، فإذا المذابح تفتك بالشيوخ والأطفال، وتملأ البيوت بالثكل واليتم..

وكانت حكومة الولاية تحاول اعتبار أولئك اللاجئين هنودًا عادوا إلى بلادهم، وتبذل بعض الجهد لتخفيف أحزانهم، بيد أن الجماهير الحانقة على المسلمين رفضت هذا المنطق وأبت إلا الفتك بهم وشن حرب استئصال عليهم..

الحق أن الاستعمار الصليبي الذي استقر في الهند عدة قرون نجح في زرع البغضاء للإسلام وأهله، وجعل القومية الهندية تنظر إلى الإسلام على أنه دين فاتح غريب..

وقد استمات الإنجليز في ترجيح كفة الوثنية على عقيدة التوحيد، واستغلوا الاضمحلال الفكري الذي أصاب المسلمين في تاريخهم الأخير فأفقدهم مكانتهم الوطيدة في الهند الكبرى.. وعند تقسيم الهند فقد المسلمون مليون قتيل على الأقل.

واليوم انتخبت الجماهير في «آثام» حكومة من الطلاب الشبان، وإني أضع رأسي بين يدي أفكر فيما تأتي به الأيام، وما قد يجد من مذابح تجتاح بقية البائسين دون عائق!.

على أنه يبقى السؤال الذي لا بد منه: لماذا لا يصلح المسلمون أحوالهم في بنجلاديش ويستغنون عن الرحلات المشئومة إلى أرض المذابح والضغائن؟ لماذا لا يتغلبون على العواصف والأنواء كما تغلب عليها غيرهم؟ إن الله سخر الأرض للبشر، ولم يسخر البشر للأرض! إن الله مكن بني آدم من البر والبحر ولم يمكن البر والبحر من بني آدم! إننا نسينا رسالتنا من حيث إننا مسلمون، ونسينا مكانتنا من حيث إننا بشر متميزون على شتى الأحياء.

ما هذا التحجر الفكري، والعجز الإنساني؟ لماذا لا نبني سدودا تتكسر عندها الأمواج، وتزدهر الأرض وراءها بأنواع الزرع؟ هكذا فعل غيرنا فما الذي يغل أيدينا؟!.

كتب الأستاذ محمد المجذوب هذه الكلمات النفيسة الصادقة تحت عنوان «أما لمآسي بنجلاديش آخر؟ » يقول: من غرائب الاتفاق أن أستمع في يوم واحد إلى هذين الخبرين:

لقد تعاون مد البحر وهبوب الأعاصير على بنجلاديش فقضى على الآلاف من سكانها..

في سجون بريطانية مجموعة من المجرمين ضاقوا بأوقاتهم، فرأوا أن يشغلوها بعمل نافع، فقاموا بردم جانب من شاطئ البحر فأحالوه أرضا صالحة للزراعة بلغت مساحة غير يسيرة، وهم الآن يطالبون المسؤولين بأن يقسموا هذه الأرض بينهم ليتخذوا منها وسيلة إلى العمل الجاد والاستقرار الذي يغير تاريخهم..

ووجدتني أطرق بإزاء هذين الخبرين مفكرا متأملا، وقد شدني إليهما معا ما تراءى لي من الصلة بينهما؛ ففي بنجلاديش الفقيرة المهددة دائما

وأبدا بكارثة المد الذي يغتال مساكن الناس، ويجرف المئات والآلاف منهم بين الحين والحين، تكاد تنحصر المشكلة في ضيق الأرض التي شاء الله أن تكون أكثر مناطق العالم اكتظاظا بالسكان، ثم بانخفاض مستوى شواطئها إلى الحد الذي يجعلها معرضة لغارات البحر كلما تفاعلت أمواجه بالمد والجزر. وتحت ضغط هذا الواقع يضطر هؤلاء المنكوبون للتسلل إلى ما يجاورهم من أراضي الهند، فيتلقاهم التعصب الهندوسي بأصناف الفواجع التي ليس أقلها الموت بإحراقهم مع منازلهم.. وفي حين أنهم يتوقعون هذا المصير الحتم لا يجدون مفرا من اللجوء إلى ذلك الجانب من الهند بعد أن شحت عليهم أرضهم بالقوت الذي يمسك الرمق..

ولم يعد وضع هؤلاء المسلمين المرزئين مما يمكن تجاهله بعد أن شهد ويشهد به كل الزائرين الذين ابتعثوا من دول الخليج للتعليم في بنجلاديش، حيث يرون تزاحم المتسولين حيث اتجهوا، وحتى إن الواحد من هؤلاء المحرومين ليعتبر القرش الذي يضعه المحسن في يده غنيمة لا يحلم بأكبر منها..

وطبيعي أن مشكلة كهذه من حقها أن تبعث كل ذي حس إنساني على التفكير والتساؤل عما إذا كانت خارجة عن نطاق الحلول التي يتصورها العقل البشري، أو أن ثمة تخلفا عقليا وسياسيا هو الذي أبرزها في هذا الوضع الذي يخيل للناظر أنها فوق الحلول ووراء كل إمكانات الإصلاح..

ومن هنا كانت الصلة بين مأساة آلاف البنجلاديشيين، هؤلاء الذين التهمهم البحر والأعاصير، وبين عمل أولئك الفتيان الذين وجدوا ضالتهم في مصارعة البحر، فما زالوا به حتى استطاعوا أن يقتطعوا منه تلك البقعة التي فتحت لهم أبواب الأمل في حياة كريمة، ولفتت أنظار الناس لاقتفاء أثرهم في التعامل مع البحر لاكتساب أراض جديدة يضيفونها إلى وطنهم ويجدون فيها المجال الرحب لزيادة مكاسبهم..

ولم يكن هذا بالأمر الغريب بالنسبة إلى أولئك الأوربيين، فغير بعيد منهم هولاندا ذات الأراضي المنخفضة، وقد سبقهم أهلها إلى مثل ذلك منذ زمن بعيد، وما يبرحون يكسبون كل يوم الحديث الجديد من اليابسة، ينتزعونها من البحر ويقيمون عليها السدود بوجهه، لتدفع غاراته وليوسعوا بها من ثروتهم الاقتصادية التي يغزون بإنتاجها أنحاء العالم.

وقد رأيت على شواطئ بومباي بالهند صورا رائعة لهذا الجهد الذي أحال أجزاء غير يسيرة من البحر مناطق رفعت عليها مئات المباني، التي بينها ناطحات السحاب.

ولنتساءل هنا: لماذا عجزت طاقة المسلمين في بنجلاديش عن التفكير بتغيير هذا الواقع الرهيب الذي يعيشونه بين الفقر والموت؟ هؤلاء المساكين الذين يعيشون في الجزر المهيأة للزوال كلما تصاعدت حركة الموج من حولها.. أليس لهم أيد تحسن العمل فتتعاون لإقامة السواتر الكافية من الحجارة والتراب حماية لأنفسهم من هذه الهجمات التي قلما تنقطع عن مساورتهم ليل نهار؟!.

وهاتيك الشواطئ المعرضة أبدا لهذا الزحف.. أليس للملايين من سكانها بعض القدرة على مواجهته بمثل ما تواجهه به هولاندا وبومباي أخطار بحريهما؟!.

الحق أن الحيرة لتستغرقني حين أتصور هذه الفواجع تلم بملايين المسلمين دون أن يتحركوا للاستعداد لها ومجابهتها بالتدابير الممكنة المعقولة قبل فوات الأوان؟.

عندما يفقد المرء حاسة الشم تستوي لديه الروائح الكدرة والروائح العطرة، وربما أماته غاز خانق يتنفسه وهو لا يدري.

والمسلمون من بضعة قرون تنتشر بينهم ثقافات مغشوشة أحدثت تغيرات جوهرية في صورتهم الباطنة، وقطعتهم في الأرض أممًا، منهم الصالحون

ومنهم دون ذلك.

والتخلف النفسي والذهني لا تصاب به الأمم بغتة، وإنما يجيء بعد أمراض تطول ولا تجد من يحسن مداواتها، ولا أزال أحس أثر هذه الأمراض وراء تخلفنا المدني والعسكري والصناعي والحضاري، إنه تخلف يعانيه المسلمون في آسيا وأفريقيا على السواء..

والذي يعنيني هو تبرئة الإسلام من هذه التبعية، إن الإسلام يهب للأمم الكسيحة أقداما تسعى بها بل يعطيها أجنحة تقدر بها على التحليق.

وإنني لأرفض وصف العقل الإسلامي الأول بالخرافة والخمول، إن هذا الوصف يحط من قيمته! إنه عقل يبحث عن الحكمة، ويحض على الانطلاق، ويمضي بأتباعه إلى الصدارة، لا بالدعوى ولكن بالجدارة.

وإذا كان هناك تبلد أو تواكل أو استرخاء فمصدر ذلك أوضاع حاربها الإسلام فاجترها إليه جهلة أغرار غشّوا علومه وزوروا شعائره، وما زالوا به حتى جعلوا أمته دون غيرها من الأمم.

أريد أن أقول للذاهلين عن علوم الحياة: إنكم تُفْقِدون الإسلامَ الحياة بهذا الفكر السقيم، وتعجزونه عن مقاومة أعداء يبغون له الويل..

لا يزال الإنسان هو العنصر الأول للنجاح في كل ميدان، والآلة تجيء في المنزلة الثانية إذا كنا في ساحة صناعية، وكذلك السلاح يجيء في المرتبة الثانية إذا كنا في ساحة عسكرية..

والإنسان المسلم مفتوح البصر والبصيرة كما علمه كتابه، يمشي على الأرض مكينا لا مهينا، سيدًا بين فجاجها لا عبدا، مخدومًا لا خادمًا، ولست أدري ما عرانا حتى صرنا نأكل من غراس غيرنا، ونلبس من نسيجه ونستورد ما يبدع!! ثم نقعد لنحول مجالس العلم إلى مجالس جدل، ولنمضغ قضايا تضر أكثر مما تنفع.. فإذا أغير علينا صرخنا نطلب السلاح، وهيهات أن

يجيء لأنه من مصانع المغيرين، أو ممن يمت إليهم بأوثق الصلات!!.

إن ٣٠٪ من مسلمي العالم يحيون في القارة الهندية المترامية الأطراف، وقد رمقت أحوالهم الدينية والمدنية وشعرت بالأسى؛ لأنها دون ما ينبغي، وزادني شعور بالقلق أن جماهير كثيفة بينهم وحولهم تعتنق الشيوعية وتسعى لفرضها بوسائل بارعة، فماذا أعدوا للنجاة بأنفسهم ورسالتهم؟.

وتتشابه مآسي المسلمين في أقطار شتى، والغريب أن أحد الناس قال لي: إن الإسلام دين وافد على أوربا، فعداوته تعتمد على أسباب قومية! قلت له: إن الإسلام والنصرانية جميعا وافدان على أوربا، وقد كان الرومان وثنيين، وكذلك القبائل القاطنة بشرق أوربا وغربها، فإذا كان لا بد من إشباع النزعات الوطنية فلتعد الوثنية الأولى، وليعبد الناس الأصنام! وأحسب ذلك أحظى عند الحاقدين على الإسلام!!.



قضية الأخلاق عندنا

هل ترجع هزائمنا العامة إلى أننا لا نملك طائرات بعيدة المدى، وإلى أننا لا نصنع القنابل الذرية؟ بعض الناس يتصور أن عجزنا الصناعي والعسكري من وراء تخلفنا هنا وهناك، وأن أمتنا لو ملكت هذه الأسلحة سادت وقادت!.

إن هذا فكر سقيم، والواقع أننا مصابون بشلل عضوي في أجهزتنا الخلقية وملكاتنا النفسية يعوقنا عن الحراك الصحيح، وأن مجتمعنا يشبه أحياءً انقطع عنها التيار الكهربائي فغرقت في الظلام، ولا بد من إصلاح الخلل الذي حدث كي يسطع التيار مرة أخرى.

وعلاج الأعطاب الشديدة أو الخفيفة بالكلام البليغ أو النصح المخلص لا يكفي! لا بد من إزالة أسباب الخلل، ومن إعادة الأوضاع إلى أسسها السليمة إلى فطرتها الأولى ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ (الرُّوم: ٣٠).

وقد راعني خلائق مقبوحة انتشرت بين الناس دون مبالاة، أو مع إغماض متعمَّد واستمرت مواقعة الناس لها حتى حولها الإلف إلى جزء من الحياة العامة. ومن هنا رأينا الاستهانة بقيمة الكلمة، ورأينا قلة الاكتراث بإتقان العمل، ورأينا إضاعة الأمانات والمسئوليات الثقيلة، ورأينا القدرة على قلب الحقائق، وجعل الجهل علما والعلم جهلا.. والمعروف منكرا والمنكر معروفا.

إن قضية الأخلاق وما عراها من وهن أمر جلل، إنك لا تستطيع بناء قصر شاهق دون دعائم وأعمدة وشبكات من حديد، ولا تستطيع بناء إنسان كبير دون أخلاق مكينة ومسالك مأمونة، وجملة من الخلال تورث الثقة..

وتأمل في قول أبي تمام:

وقد كان فوت الموت سهلا فرده إليه الحفاظ المرّ والخلق الوعر!

إن ضمانات الخلق الصلب في سيرة هذا البطل هي التي تعلو بها الأمم، وتنتصر الرسالات، وهى التي يستخذي أمامها العدو وتنهار الطواغيت، وعندما ترى مجتمعا صارما في مراعاة النظام دقيقا في احترام الوقت، صريحا في مواجهة الخطأ، شديد الإحساس بحق الآخرين، غيورا على كرامة الأمة، كثيرا عند الفزع، قليلا عند الطمع، مؤثرا إرضاء الله على إرضاء الناس، عندما ترى هذه الخلال تلتقي في مجتمع ما، فثق أنه يأخذ طريقه صعدا إلى القمة.

وقد كان المسلمون الأوائل نماذج أخلاقية تجسد فيها الشرف والصدق والطهر والتجرد، ولذلك تصدروا القافلة البشرية عن جدارة، ولا غرو فقد كانوا صنع الإنسان الذي وصفه الله بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (القلم:٤)، وكانوا نضح روحه العالي فمشت وراءهم الشعوب تتعلم وتتأسى.

أما اليوم فنحن نجرى ونلهث وراء الشعوب الأخرى دون أن نصل إلى مستواها؛ لأن وزن الأخلاق عندنا خفيف، وارتباطنا بها ضعيف.

والأخلاق مجموعات متنوعة من الفضائل والتقاليد تحيا بها الأمم كما تحيا الأجسام بأجهزتها وغددها، فإذا اعتلت هذه المجموعة وانفكت رأيت ما لا يسر في مسالك العامة والخاصة..

في كثير من البلاد الإسلامية رأيت الوساخة في الطرق والبيوت أو في الملابس والأبدان، ورأيت الفوضى في مسير الأشخاص والعربات، ورأيت الإهمال والتماوت في تناول السلع والوجبات، ورأيت دوران الناس حول مآربهم الذاتية ونسيانهم المبادئ الجامعة والحقوق العامة، ورأيت انتشار اللغو والكسل وفناء الأعمار في لا شيء!!

الكذب في المواعيد، وفي رواية الأخبار، وفي وصف الآخرين أمر سهل! وكذلك استقصاء الإنسان في طلب ما يرى أنه له، واستهانة في أداء ما هو عليه، ونقصه ما هو قادر على إتمامه، وفقدان الرفق في القول والعمل،

وشيوع القسوة والمبالغة في الخصام.

ثم تحوُّل الآداب إلى قشور يطل من ورائها الرياء، بل إن الرياء – وهو في الإسلام شرك – يكاد يكون المسيطر على العلاقات الاجتماعية، وهو الباعث الأول على البذخ في الأحفال والولائم والمظاهر المفروضة في الأفراح والأحزان..

العجز الإداري قد يرجع إلى أسباب خلقية وعلمية، بيد أن الأسباب الخلقية عندنا أسبق..

والفشل العسكري قد يرجع إلى أسباب نفسية وفنية وصناعية، بيد أن الأسباب النفسية عند العرب أظهر وأقوى..

ويجزم أولو الألباب بأن الساسة العرب والقادة العرب وراء كل نصر أحرزه بنو إسرائيل خلال أربعين سنة..

بل إن قادة اليهود صرحوا بأن المكاسب التي أحرزوها تجاوزت الأحلام وسبقت الخيال! وإنهم ما خططوا لها ولا احتالوا لبلوغها! إنها هدية من الانحلال العربي ومن ضعف الأخلاق، إنها غنيمة باردة لخصوم يحسنون انتهاز الفرص!.

وأي فرص أغلى من أن يكون القائد العربي صريع مخدرات ومسكرات، وأن يكون الزعيم العربي قد وصل إلى منصبه فوق تل من جماجم خصومه، ورفات بني جنسه المدحورين أمامه..

إن هذه أعظم فرصة لقيام دولة إسرائيل، لقد قامت في الفراغ المتخلف من ضياع الأخلاق لدينا وتحول المسلمين إلى أمم مقطعة، خربة الأفئدة، مخلدة إلى الأرض، جياشة الأهواء، باردة الأنفاس.

إننا نقول لغيرنا: النار مصير الملاحدة، والمشركين لسوف يُجْزون ما يستحقون لقاء كفرهم بالله ونسيانهم له!

وليت شعري لماذا لا نقول لأنفسنا: والنار كذلك مثوى المرائين الذين عموا عن وجه الله، وأرادوا الحياة الدنيا وزينتها، واستماتوا في طلب الشهرة والسمعة والمال والجاه، وكانت علاقتهم بهذه الأهواء أشد من علاقة المشركين بأوثانهم؟!

لماذا لم نقل لأنفسنا: إن أول من تسعر بهم النار رجال دين يطلبون الدنيا، ورجال مال وحرب ينشدون الوجاهة والسلطان؟ ألم يقل لنا نبينا ذلك؟

إنني طفت في أقطار إسلامية كثيرة، فرأيت سطوة العرف أقوى من سطوة الشرع، واتباع الهوى أهم من اتباع العقل!.

وللناس قدرة عجيبة في إلباس شهواتهم ثوب الدين، وتحقيق مآربهم الشخصية باسم الله..

وأذكر أني كنت في شبابي الباكر أغشى بيت تاجر أرمني كي أدرِّس اللغة العربية لأحد أولاده، وكانت الأم ترقب ابنها وتذكره بما أفرضه عليه من واجبات.. وخلال سنة لاحظت أن هذه الأم لا ترتدي إلا ثوبين أو ثلاثة من نوع رخيص ولكنه نظيف وأنيق، وكثيرا ما كانت تعين زوجها في دكانه وهي على هذه الحال من قلة التكلف وتواضع الملابس.. على حين كنت أرى الأسر الإسلامية في دنيا أخرى ما تكتفي المرأة إلا بالعشرات من الثياب الغالية.

ورأيت عرس يهودي يبني بزوجته – قبل قيام دولة إسرائيل – فلم أر ما يثير الانتباه، وتذكرت وصف حافظ إبراهيم لعرس عربي:

سال فيه النضار حتى حسبنا　　　أن ذاك الفِناء يجري نضارا

قلت: ماذا تفعل أمتنا بنفسها؟ وإلى أين تسير؟ وما تلك الأخلاق والتقاليد التي تحكمها؟

اتصلت بي فتاة في أواخر شهر رمضان عن طريق الهاتف، وقالت: نحن

نسمع دروسك، وربما كان لها أثر حسن، أرجوك أن تنصح الآباء ألا يعضلوا بناتهم، إن أبي رد ثلاثة من الخطَّاب أتوا يطلبونني، والسن تتأخر بي! قلت: لعل في دينهم أو مروءتهم ما يصرف النظر عنهم! قالت الفتاة في يأس: إن الإيمان والأخلاق آخر شيء ينظر إليه! المهم المال والجاه! المهم الحسب والنسب.

ودرست أوضاع الزواج في أغلب البلاد الإسلامية، فوجدت النفاق الاجتماعي يهيمن على السلوك: كم سيدفع لشراء الحلي والملابس؟ كم سيدفع لإقامة الأحفال والولائم؟ كم سيدفع لتقديم الهدايا واقتناء الأثاث العصري؟ ثم هذا العريس المتقدم من أي القبائل؟ إذا لم يكن من الحزب النازي فلن يصلح لفتاتنا، ولو كان مخترع الأقمار الصناعية.

الواقع أن أولي الألباب يحارون في فهم شبكة التقاليد التي تسود عالمنا الإسلامي! وهم يوقنون بأنها بعيدة عن تقوى الله، ورعاية المصالح..

إن الجماهير تغض الطرف عمدا عن مسالك للشباب قبل الزواج تذبح فيها أعراض، وتبيد فضائل، إلى أن يتيسر الزواج وفق المواصفات التي وضعها الشيطان.

وعندما تكون الرذيلة جزءًا لا بد منه في الحياة الاجتماعية فعفاء على الدين؛ إنه سيكون عنوانا لا مفهوم له، أو اسما لا حقيقة له، ولا معنى للمسجد بجوار ماخور!.

إنني أتأذى عندما تزوَّر الانتخابات في بلد ما، لا لأن نفرًا من الشطار سوف يسرقون مناصب لا يستحقونها -وهذا وحده جريمة- بل مصدر الأذى مرور الكذب في هدوء، واستقرار شهادة الزور دون اكتراث، وإلف الكبار والصغار أن تطمس الحقيقة دون نكير! وأمة تحيا بهذه الأخلاق جديرة بالموت!.

ما عرفته من تعاليم الإسلام، ومن سيرة رجاله، أن الدين والخلق قرناء

جميعا، وأنه إذا صح الإيمان وصحت العبادات التي فرضت معه، ازدهرت الفضائل وتعامل الناس بشرف ونبل وتراحم وتسامح، واستخفى الغدر والخبث والشّره والزور... إلخ.

لقد ورثنا ثروة كبيرة من الآداب النفسية والاجتماعية، يتدبرها المرء فيتساءل: إلى أي أفق من الكمال والسناء ترفعنا هذه النصوص لو أننا اعتصمنا بها وحولناها إلى مسالك حية؟.

خذ هذه النماذج السريعة: قال رسول اللّه ﷺ: «إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء، وإن أحسن الناس إسلاما أحسنهم خلقا»!.

وقال ﷺ: «إن اللّه عز وجل ليعطي على الرفق ما لا يعطي على الخرق، وإذا أحب اللّه عبدا أعطاه الرفق. ما من أهل بيت يحرمون الرفق إلا حرموا الخير».

وقال عليه الصلاة والسلام: «تبسمك في وجه أخيك لك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وإماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة ».

وقال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده، لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا».

وقال ابن عباس مفسرا قوله تعالى ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: الصبر عند الغضب، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا -يعني المسلمين - عصمهم اللّه وخضع لهم عدوهم.

وعن النعمان بن بشير: كنا مع رسول اللّه ﷺ فخفق رجل -نعس- وهو على راحلته، فأخذ رجل سهما من كنانته فانتبه الرجل فزعا، فقال رسول

الله ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يروع مسلما».

وقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «تدرون أربى الربا عند الله؟ قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: فإن أربى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم! ثم قرأ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾ (الأحزاب: ٥٨).

وعن أبي كثير السحيمي عن أبيه قال: سألت أبا ذر فقلت: دلني على عمل إذا عمل العبد به دخل الجنة. قال أبو ذر: سألت عن ذلك رسول الله فقال: «يؤمن بالله واليوم الآخر»، فقلت: يا رسول الله، إن مع الإيمان عملا. قال: يرضخ – يعطي – مما رزقه الله! قال: أرأيت إن كان فقيرًا لا يجد ما يرضخ منه؟ فقال: يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر! قال: قلت: يا رسول الله، أرأيت إن كان عييًّا لا يستطيع أن يأمر أو ينهى؟ قال: يصنع لأخرق! قال: أرأيت إن كان أخرق –عاجزا- لا يستطيع أن يصنع شيئا؟ قال: يعين مغلوبا! قال: أرأيت إن كان ضعيفا لا يستطيع أن يعين مغلوبا؟ قال الرسول ﷺ: ما تريد أن يكون في صاحبك من خير!! يمسك عن أذى الناس! قلت: يا رسول الله، إذا فعل ذلك دخل الجنة؟ قال: ما من مسلم يفعل خصلة من هؤلاء إلا أخذتّ بيده حتى تدخله الجنة».

تأمل في هذا الاستقصاء، وتأمل في أن خلال الخير هي التي تقود الرجل من يده فتدخله الجنة!.

إن السلبية لا تزكي فردا ولا جماعة، والأمة التي تدور حول مآربها وحسب لا تزيد عن أعدادها من الدواب في الحقول، أو الوحوش في الغابات..

وهناك رذائل تتجاوز مقترفيها ويمتد أذاها إلى آماد بعيدة، فالغش في الامتحانات أو السلع أو المباني أو رصف الطرق، أو غير ذلك من شئون الناس خاصة أو عامة، رذيلة مدمرة النتائج، وقد نفى النبي عليه الصلاة والسلام صاحبها من جماعة المسلمين: «من غشنا فليس منا».

والواقع أن فشوَّ الغش في مجتمعنا، وقلته في مجتمعات أخرى هدَّ ركننا، وأضعف قوانا، وزعزع الثقة فينا!.

وبعض الجامعات الكبرى ترفض الإجازات العلمية الممنوحة من بعض معاهدنا لأنها لا تطمئن إلى قيمتها، كما أن بعض المستهلكين يرفض السلع التي نصنعها لأنه لا يطمئن إلى جودتها! أيشرفنا هذا الوضع؟.

وكما نفى النبي ﷺ أن يكون الغشاشون من الأمة نفى أن يكون الهابطون بأقدار الكبار، الجاحدون لمكانة العلماء من الأمة «ليس منا من لم يوقر كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه».

والحق أن فواجع رهيبة أصابت المسلمين بسبب غمط الأذكياء وتقديم الأغبياء، والعرب يرجحون عصبية الوطن والنسب على الكفاءة العلمية والإدارية، والمستبدون من الحكام يقدمون مشاعر الزلفى والملق على القدرة الرائعة والخبرة الواسعة.

وقد كنت أوازن بين قادة الشيوعية والصليبية من ناحية وقادة المسلمين من ناحية أخرى فأشعر بغصة، القوم يقدمون أعظم ما لديهم ونحن نقدم ما تيسر..

والأخلاق ليست شيئا يكتسب بالقراءة والكتابة، أو الخطابة والدعاية، إنها درجة تكتسب بالمعاناة الشديدة، كيف تنتقل من أدنى إلى أعلى؟ كيف تنتقل من الطراوة إلى الصلابة؟ والمرء في هذا الميدان يصنع نفسه، وهو أدرى الناس بما يشينه من كسل أو بخل أو خوف... إلخ، فيرسم طريق الشفاء ومراحل الخلاص، ولا يزال يتابع السير، ويغالب العقبات حتى يبرأ من علله.

على أن للجماعة الإنسانية دخلا كبيرا في إدراك هذا النجاح، وقد علمنا أن هناك بيئات تنبت الذل وأخرى تنبت العز، وبيئات تنبت التواصل والتعاون وأخرى تنبت التحاقد والتحاسد.

وكان في الإمكان أن تتألف جماعات أو مدارس أو طرق لهذه التزكية المنشودة، بيد أن رجال الطرق لدينا اعتمدوا على أوراد وبدع لا خير فيها، وفقدوا المقدرة العلمية والعملية على التسامي بأنفسهم وبالأجيال، فأساءوا ولم يحسنوا، ومن هنا لم تجد الأخلاق التربة التي تزكو فيها وتزهر.. وعاش الناس وفق ما أتيح لهم من طبائع وتقاليد.

وكم كنت أود لو وجد الأستاذ المخلص الذي يتعهد الناشئة ويبصر ميولهم ومسالكهم، فيقوِّم ما اعوج بأناة، ويصلح الأخطاء بمحبة، ويحل العقد النفسية، وينشط الملكات الذكية، ولا يزال يصحبها بتوجيهاته حتى يخلق من الأطفال الصغار أبطالا كبارا، كل يمضى حسب قدراته «ولكل وجهة هو موليها».

وعصرنا لا يسمح بوجود هذا الأستاذ؛ لأنه أوقد جذوة التنافس بين الناس، وبغَّض لكل امرئ وضعه فهو لا يبقى فيه إلا ريثما يتحول عنه إلى منصب أعلى.

ويغلب أن ينتقل هذا الأستاذ من منصبه العلمي إلى منصب إداري أحظى لدى الناس، فلا يبقى في ميدان التربية الحقيقة إلا من فاتته القافلة وأكرهته الأيام على البقاء!.

والأخلاق لغة عالمية تتفاهم بها الشعوب على اختلافها، وتتحاكم إلى منطقها، وربما اختلفت تقاليد وأحكام لكن الأخلاق تظل مرتكزة إلى ما أودع الله في الفِطَر من تحسين الحسن وتقبيح القبيح.

ونحن نعلم من ديننا أن من أركان النفاق الكذب في الحديث، والخلف في المواعيد، والخيانة في الأمانات،والغدر في العهود، والفجور في الخصومات.. والناس في المشارق والمغارب ما ينكرون شيئا من هذا، وما يحترمون كاذبا ولا غادرا.. إلا أننا نلفت الأنظار إلى حقيقة لها خطرها؛ إن الأخلاق في أرضنا تتصل اتصالا وثيقا بالإيمان، فإذا اهتزت العقيدة ظهر النقص،

ونجم الإثم، واضطربت الأمة كلها.

وقد أصابنا الاستعمار العالمي في صميمنا عندما أوهى الإسلام واستبعد إيحاءه في الحياة العامة، لقد تبع ذلك انهيار خلقي محزن، وميوعة لا تستقر فيها على شيء!.

ربما كانت للقوميات الأخرى فلسفات تتماسك بها، أما في دار الإسلام فإنه مع استبعاد الإيمان ومواثيقه وشعائره انحلت الأفراد والجماعات على نحو لم تعرفه بلاد أخرى، وتبجحت الخيانة، وفجر الأقوياء، ولصق الضعاف بالحضيض، وصار طلب الخبز النداء الأول! وارتضى الكثيرون أن يفوزوا من الغنيمة بالإياب.

ولكي يعود سلطان الأخلاق إلى عرشه يجب أن يعود اليقين إلى الأفئدة، وأن تألف الجماهير الصلاة، وأن تنتصر الفضائل على الشهوات، وألا يحترم كذوب أو يتقدم مفرط.

وأرى أن يتم تصنيف الأخلاق وفق مقتضيات العصر، فهناك أخلاق تشرح بدقة في التعامل بين الحكام والجماهير، وأخرى بين الجنسين في شتى الميادين، وأخرى بين العمال وأصحاب العمل، أو بينهم وبين العمل نفسه. وفي الإسلام مَدَد لا يغيض لهذه الغايات كلها.



في عالم المرويات

قرأت هذه الرواية المنسوبة إلى الشعبي -وهو من التابعين – وضقت بها ضيقا شديدا.. وقبل أن أنقلها ألفت الأنظار إلى تفاهة نفر من الناس يعيشون داخل قوقعة من أهوائهم، ثم يحاولون عقد صلح بين الدين الحنيف وأهوائهم الشاذة!.

هذا امرؤ مصاب بجنون العظمة، تقول الرواية: إنه قصد الكعبة طالبا من الله أن يمنحه ملك العالم الإسلامي، فإذا خرج عليه أحد أمكنه الله من ضرب عنقه(!) أي دعاء هذا؟

وهذا امرؤ آخر متواضع يطلب ملك العراق فقط، بيد أنه يضم إلى هذا الطلب الزواج من امرأة بعينها، سمَّتها الرواية!.

لم أشك في أن الرواية مكذوبة، وأن الشعبي أعقل من أن ينقل هذا الهراء، لكن الذي أهمني هو سوء تصور بعض الناس لحقائق الدين ومراميه، فليس الدين كبتا للشهوات الجامحة، وليس رفعا لمستوى النفس وليس نشدانًا للآخرة، بل هو جراءة على الوقوف بين يدي الله لطلب ما لا يليق منه سبحانه وتعالى!.

والغريب أن القصة تنتهي بدعاء من الصحابي الكريم عبد الله بن عمر، فإنه لما رأى أولئك النفر يسألون الله الدنيا ومتاعها ذهب هو إلى الكعبة وطلب من الله الجنة.

قال الراوي: فبشره الله بإجابة سؤاله! كيف بشره؟ سلبه بصره! ومن صبر على العمى دخل الجنة!!.

ولأنقل الرواية بعد هذه التقدمة.. فهي نموذج لتفكير أقوام يعيشون في عالم المرويات التي لا يضبطها فقه ولا وعي.

نقل ابن ظهيرة عن الشعبي أنه قال: رأيت عجبا؛ كنا بفناء الكعبة أنا وعبد الله بن الزبير وأخوه مصعب وعبد الملك بن مروان فقالوا بعد أن

فرغوا من حديثهم: ليقم رجل فليأخذ بالركن اليماني وليسأل الله تعالى حاجته، فإنه يعطي من سعة، ثم قالوا لعبد الله: قم أولا، فإنك أول مولود في الهجرة.

فقام فأخذ بالركن اليماني ثم قال: اللهم إنك عظيم تُرّجى لكل عظيم أسألك بحرمة وجهك وحرمة عرشك وحرمة نبيك ﷺ أن لا تميتني من الدنيا حتى توليني الحجاز، ويسلم علي بالخلافة.. وجاء وجلس.

ثم قام أخوه مصعب فأخذ بالركن اليماني وقال: اللهم إنك رب كل شيء وإليك كل شيء، أسألك بقدرتك على كل شيء أن لا تميتني من الدنيا حتى توليني العراق، وتزوجني سكينة بنت الحسين.. وجاء وجلس.

ثم قام عبد الملك بن مروان فأخذ بالركن اليماني وقال: اللهم رب السموات السبع والأرض ذات النبات بعد القفر، أسألك بما سألك عبادك المطيعون لأمرك، وأسألك بحرمة وجهك، وأسألك بحقك على جميع خلقك وبحق الطائفين حول بيتك أن لا تمتني حتى توليني شرق الأرض وغربها، ولا ينازعني أحد إلا أتيت برأسه.. ثم جاء وجلس.

ثم قام عبد الله بن عمر حتى أخذ بالركن ثم قال: اللهم يا رحمن يا رحيم، أسألك برحمتك التي سبقت غضبك، وأسألك بقدرتك على جميع خلقك أن لا تميتني من الدنيا حتى توجب لي الجنة.

قال الشعبي: فرأيت كل واحد وقد أعطى ما سأل، وبشِّر عبد الله بالجنة. قال ابن ظهيرة: ولقائل أن يقول: ما الدليل على وجه البشرى؟ والجواب من وجهين:

الأول: أن ابن عمر كان قد كف بصره بعد ذلك، وقد وعد النبي ﷺ من ابتلي بذلك بالجنة – كما في صحيح البخاري.

والثاني: أن الثلاثة لما أعطوا ما سألوه كان ذلك أدل على إجابة دعاء

الجميع؛ إذ هو اللائق بكرم اللّه وسعة عطائه. وكان سيدنا ابن عمر من الورع والزهد والصلاح بالمكانة التي لا تجهل كما في مناقبه (كما في الجامع اللطيف: ص ٤٢).

عندما قرأت هذه الحكاية منسوبة لمحدث فقيه قلت: كيف لم يشعر التابعي الجليل بما في هذا الدعاء من نكر! أيجوز أن يكون عبد اللّه بن الزبير طالب ملك قاتل دونه ومات في سبيله؟! أيعرف عبد اللّه أن سؤال الإمارة لا يجوز، وأن طالبها لا يُولَّى؟

وإذا رفضت أن ينسب هذا المسلك لعبد اللّه، ورفضت أن ينسب مثله إلى أخيه الشجاع مصعب، فهل يجوز أن يطلب عبد الملك أن يمكِّنه اللّه مِنْ قتل الذين يشغبون على سلطانه الفذ؟ أهذه عبادة اللّه؟ فما عبادة النفس إذن؟

وأنتقل إلى موقف الرجل العابد المجاهد عبد اللّه بن عمر الذي شهد مع رسول اللّه ﷺ معاركه مع الوثنية، وبقي طيلة عهد الخلافة صوَّامًا قوَّاما منكِرًا لذاته، مبتعدا عن الفتن، مستغرقا في طلب الآخرة!.

أينسى هذا الماضي الوضئ كله، ولا يستحق به شيئًا حتى إذا فقد بصره قيل: هذا بشير الجنة؟!

أعرف هذا الحديث القدسي الصحيح: «إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة»، وفسر النبي ﷺ حبيبته بعينيه؟

وتصبير الإنسان على ما أصابه هو من عزائم الدين، والرضا بقضاء اللّه طريق لا ريب فيه إلى الجنة. ولكنا نحفظ أن رسول اللّه ﷺ كان يستعيذ باللّه من سيء الأسقام والأوجاع، ومن أدعيته: «اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا». أي: لا تحرمنا من هذه الحواس ما بقينا، فلا تفارقنا ما دمنا على ظهر الأرض؛ ترثنا بعد أن نفارق نحن الحياة، ولا نرثها ونحن أحياء.

هذه طبيعة البشر، وفطرة الله في الأنفس، فليس يستحب أحد لنفسه فقد سمع ولا بصر، ولا بشرى في هذا! فإذا أصيب كما أصيب يعقوب صلوات الله عليه صبر واحتسب، وتعلق بثواب الآخرة!.

لكن ناقل الرواية التي أثبتناها هنا كان من ضيق الفقه بحيث ذهل عن ماضي ابن عمر الزاهر، وقال: ما دام الله قد عجل الإجابة لطلاب الملك والنساء، فالإجابة المعجلة لابن عمر أن يفقد بصره ليدخل الجنة!.

ويؤسفنا أن كثيرا من النقلة للأخبار مبتلَوْن بهذا القصور العقلي، وذلك ما جعلني أقول في كتاب آخر: لا سنة من غير فقه!.

وعالم المرويات واسع الأرجاء، ونحن نستقبله كل صباح عندما نقرأ الصحف التي تصدر كل يوم، أليست تروي لنا أنباء ما يقع في الدنيا؟ وهذه الصحف الناقلة للأخبار أنواع: منها ما هو جاد دقيق نثق في مصادره ونستريح إلى تعليقاته، ومنها ما هو معروف بالتهويل والإثارة نأخذ الحقائق منه بقدر.

وإذا كانت الصحافة والإذاعة ترويان ما يقع الآن فإن التاريخ السياسي والأدبي يروى لنا ما وقع في الماضي القريب والبعيد..

والماضي سناد الحاضر، وكثير من التيارات المعاصرة تنبجس من الأيام الخالية! ونحن نقرر ذلك لندرك أن التعامل مع عالم المرويات لا محيص عنه ولا عيب فيه... إنما يكمن العيب في تلقي الأخبار دون تمحيص، وفي قبول الروايات دون روية، والأمم ذوات الأديان تعتمد في إيمانها وسلوكها على ما آل إليها من تراث، ولسنا –نحن المسلمين– بدعًا في الاستفتاء من الوحي الذي نزل، واستفتائه في أمور كثيرة.

ومن الواجب أن نعرف كيف تلقينا ما جاءنا، فما كنا، ولن نكون أتباع أوهام! إننا نصدق ما لا يكذبه عاقل! ولدينا من مقاييس النقد ما لا يعرفه الآخرون. ولنذكر بادئ ذي بدء أن القرآن الكريم أساسنا، وهو كتاب ثابت

ثبوت السماوات والأرض والليل والنهار، وحوله سياج من التواتر يجعله محفوفا باليقين من جهاته كلها..

والكتاب تحفظه عن ظهر قلب جماهير من المؤمنين، وهو معروض على أولي الألباب في كل آن يتدبرونه ويتساءلون عما يعنٌّ لهم فيه..

ونحن المسلمين نرى في القرآن الكريم جميع الحقائق التي كلف المرسلون الأوائل بتبليغها، وأنه إلى آخر الدهر مجمع العقائد والشرائع التي تكفل للناس الهدى والاستقامة، وأنه مصون من التزيد والتحريف اللذين تعرضت لهما كتب أخرى، وأنه يمكن القول الجازم بأن الوحي الإلهي للناس أجمعين، في القارات كلها قد استقر في هذا الكتاب وحده.

ونجيء بعد ذلك إلى سنة محمد خاتم النبيين لنقول: إن ما تواتر منها واشتهر وصح جدير بالثقة، وإنه امتداد للقرآن يمشي في سناه ولا يزيغ عنه!!

والواقع أن علماءنا الأقدمين وضعوا لقبول المرويات ضوابط يتأملها العقل العادي فيستريح إليها، وقد قلت: إن هذه الضوابط لو عرضت على الماديين أنفسهم ما لاحظوا عليها مأخذا.

وما نستطيع أن نجد ضمانات أخرى فوق الضمانات التي اشترطوها لمنع الأخطاء عن النقول المروية. ولا نقبل من أحد أن يقول: نرفض كل هذه المرويات؛ لأن الوهم قد يتسرب إليها؛ لأننا لا نقبل من أحد أن يقول: نرفض التاريخ كله؛ لأن التاريخ يغلب أن يكتبه المنتصر، ولا نقبل من أحد أن يقول: أرفض قراءة الصحف لأنها قد تروي الشائعات.

اقرأ.. وانقد.. ووازن.. ورجِّح، وابحث عن الحق ما استطعت وتجرد من الهوى، فهذا هو النهج.

وعلماؤنا الأقدمون مشوا في هذا الطريق، والأمة الإسلامية في تاريخها

الأول كانت أمة حقائق لا أوهام، ولم تكن للخرافات أسواق رائجة كما يحدث الآن. كان للفقه علماؤه، وكان للحديث علماؤه، وربما وهل الآخرون في شيء فيستدرك عليهم الأولون، وقد يكون العكس، وإن كان تاريخنا العلمي قد جعل الفقهاء أصحاب القيادة وجعل الجماهير تتبع مذاهبهم عن اجتهاد طورا وعن تقليد أغلب الأحيان..

والذي نلحظه آسفين أن كثيرا من جامعي السنن قد تساهلوا في قبول أسانيد ضعيفة، وأن هذا التساهل زحم ميدان السنة بآثار ما كان ينبغي أن تذكر..

وإذا كان من شرط الحديث الصحيح أن يخلو من الشذوذ والعلة القادحة، فإن رواة كثيرين نقلوا ما خالفوا به الثقات، ونقلوا ما به علل ترده! ومع ذلك سطَّروا وحبَّروا، وتركوا للأخلاف ما عكر المجرى، وبلبل الفكر.

إن رجلا جليلا كالبخاري ترك أحاديث كثيرة مرت به فلم يرها أهلا للتدوين، ومن هنا لم يجمع في صحيحه إلا ألفين وبضع مئات من السنن. على حين جمع غيره آلافا وآلافا من الآثار تحتاج في غربلتها -حسب مقاييس علمائنا- إلى جهد جهيد..

ولأذكر مثالا واحدا للبلاء الذي أصاب الجماعة الإسلامية من تسجيل الأحاديث الضعيفة وتركها تشغب على معالم الدين، ومعاقده!

من تلاوتنا للقرآن الكريم نعي أن الله خلق لنا ما في الأرض جميعا ومكننا منه، وملكنا إياه.. ألسنا جــزءا من البشــر الذين قال الله لهم:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (الجاثية: ١٣).

وصاحب هذه الإمكانات المتاحة مكلف أن يتصرف فيها بما يرضى الله كما تصرف سليمان في نقل عرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين ثم قال:

﴿ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ (النَّمل: ٤٠).

هل يقبل من أحد أن يستقيل من هذه الوظيفة، ويحيا صفر اليدين، ويفر من أعباء التكليف، ويقول: أنا زاهد في الدنيا!. وأين مستقبل الإيمان ودولته على ظهر الأرض إذا كان الأتباع جماهير غفيرة من أولئك المستقيلين الهاربين؟

إن أعدادا كبيرة من المسلمين زعموا أن صاحب الرسالة آثر الفقر على الغنى، ودعا إلى قلة ذات اليد، وبهذه الفلسفة الجبانة نشروا الفقر في الأمة الإسلامية من عدة قرون، وجعلوها لا تحسن إدارة مفتاح في خزائن الأرض!.

الأمر لا يستحق هذا العناء!! فلننظر: هل جاء في سنة صاحب الرسالة تحقير للغني وتأخير لأصحابه وذم لأنشطتهم؟ في السنة الصحيحة لا يوجد شيء من ذلك، بل الذي رواه البخاري: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها».

والأحاديث كثيرة في توكيد هذه القاعدة الاجتماعية الرشيدة، فالعالم الأول في عصرنا يقوم على المال والعلم، والعالم الثالث يقوم على الفقر، والجهل البسيط أو المركب!! ومع ذلك فقد روى نقلة السنن عشرات الأحاديث تحت عنوان « الترغيب في الفقر وقلة ذات اليد وما جاء في فضل الفقراء والمساكين والمستضعفين...».

وقد ساءني في إحدى المحاضرات أن المتحدث، وهو من العلماء المرموقين، غمز عبد الرحمن بن عوف، ناقلا حديثا نبويا يفيد أن عبد الرحمن، لكثرة ماله لا يدخل الجنة إلا حبوا، قلت له: هذه الأحاديث وأشباهها معلولة لا يجوز أن تروى!.

وأنا وَفْق القواعد القرآنية والنصوص القاطعة أرفض هذا الحكم، أليس

يقول الله ﴿ في عبد الرحمن وأشباهه: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ (الحديد: ١٠) ؟.

وعبد الرحمن أسلم يوم كان المسلمون يعدون على أصابع اليد، ومنذ أسلم سخر نفسه وماله لله، فهل جريمته أنه صاحب مال سلطه الله على هلكته في الحق؟ أذلك الذي يؤخر مكانته ويضع درجته؟!

إن علماءنا قالوا بوضوح في علم الحديث: إذا خالف الثقةُ الأوثق فحديثه شاذ، فإذا كان المخالف ليس ثقة فحديثه منكر أو متروك! لماذا لم نطبق القواعد العلمية الموضوعة المحترمة على هذا السيل من المرويات التي ضارت مجتمعنا وأوهنت قواه؟.

لقد رأيت الأمة الإسلامية محكومة بجملة من الأحاديث المتروكة والمنكرة والشاذة! ورأيت هذه الأحاديث تطرد أمامها المتواتر والمشهور والصحيح كما تطرد العملة المزيفة العملة الصحيحة!.

ولا أدري كيف استطاعت هذه الأحاديث تنويم حَمَلَتَها، ولا أزال أعجب كيف أن رجلا من أساطين المحدثين كابن حجر يعترف بحديث الغرانيق وهو أكذوبة غليظة، وإن كان يضعه، لكنه يرى له أصلا، أي أصل غفر الله لك؟

وكذلك فعل مع حديث «أفعمياوان أنتما»، مع أن الروايات الصحيحة في البخاري ومسلم ترده وتجعله حديثا لا وزن له...

ورأيت ابن كثير يروي حديثًا أن سورة الأحزاب كانت في طول سورة البقرة(!) وأن النسخ عرض لأكثرها فبقي منها ما بين أيدينا! قلت: أينزل الله وحيا في نحو ثلاثين صفحة، ثم يمحو منه ثلاثا وعشرين أو أربعًا وعشرين صفحة ويدع الباقي؟ إذا لم يكن هذا الكلام علة تقدح في الحديث فما تكون العلل القادحة؟ هذا حديث لا يساوي المداد الذي كتب به.

والأحاديث الصحاح من رواية الآحاد تفيد العلم المظنون لا العلم المستيقن، وقد اتفق علماؤنا على العمل بها في فروع الشريعة.

ورأيت قلة من الظاهرية والحنابلة يرون العمل بالآحاد في القضايا القطعية، بيد أن هذا رأي مردود، وعلى أية حال فعقائدنا تعتمد على نصوص متواترة، سواء كان التواتر لفظيا أو معنويا. والقدر الذي لا بد منه من العبادات والأخلاق والمسالك المنجية عند الله مروي بهذا الطريق.

وأكثر ما وقع من خلاف، هو في أمور ثانوية، الاجتهاد فيها من أهله مأجور خطأ كان أم صوابا، ولا تهولنك وجهات النظر الكثيرة في المذاهب الفقهية، فإن الخصام فيها نوع من الجنون الذي يسود بين الدهماء، ويجب أن يتنزه عنه أولو الألباب.

ذلك، ويرى أبو حنيفة أن الفرض ما ثبت بدليل قطعي لا شبهة فيه، أما ما يثبت بدليل ظني كأحاديث الآحاد، فإنه يكون دون الفرض..

والأئمة الكبار يحسنون التنسيق بين أدلة الكتاب والسنة، وفي علم أصول الفقه متسع لمن أراد الاستزادة، وإنما ذكرت هذا الكلام لأني في ميدان الدعوة الإسلامية وجدت ما يستحق الشرح والتعليق عند الاستشهاد بشتى الأحاديث..

إنني آبي كل الإباء أن أربط مستقبل الإسلام كله بحديث آحاد مهما بلغت صحته، كيف أجازف بعقائد ملة شامخة الدعائم عندما أقول: لا يؤمن بها من لم يؤمن بهذا الحديث الوارد؟.

أقول ذلك لأني وجدت في تجاربي، وفي قراءاتي ما يحتاج إلى إزالة الريبة وكشف الحق، قال الباقلاني يصف ما دار بينه وبين ملك الروم من حوار حول صحة الإسلام:

قال الملك: هذا الذي تدعونه معجزة لنبيكم في انشقاق القمر، كيف هو عندكم؟.

قلت: هو عندنا صحيح! انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ حتى رأى الناس ذلك، وإنما رآه الحضور، ومن صادف نظره إليه في تلك الحال.

قال الملك: وكيف لم يره الناس جميعا؟

قلت: لأن الناس لم يكونوا على موعد وأهبة ليروا انشقاقه!.

قال الملك: أبينكم وبين القمر نسب أو قرابة؟ لأي شيء لم تر ذلك الروم وسائر الناس وإنما رأيتموه أنتم خاصة؟!

قلت: فهذه المائدة –التي أنزلها الله على عيسى– بينكم وبينها قرابة؟ لماذا رأيتموها أنتم وحدكم دون اليهود والمجوس والبراهمة وأهل الإلحاد، وخاصة يونان جيرانكم، فإنهم كلهم منكرون لهذا الشأن، وأنتم رأيتموها دون غيركم؟

وقبل أن أذكر رأيي في هذا الجدال، أذكر للقراء أن صاحب إظهار الحق تعرض لهذه القضية، وردَّ على أتباع الكتاب المقدس بأدلة أخرى أشد قوة وأكثر إقناعا مما ذكره الشيخ الباقلاني.

وكأنما يقول لهم: إن اعتراضكم على قصة الانشقاق يرتد إليكم فيهدم مقررات عندكم لها مكانتها، بل قد يحجب الثقة عن مراجعكم العتيدة، ويجعلها مستحيلة الصدق.

وقد فصل كلامه في سبعة وجوه[1] نجتزئ منها وجهين اثنين:

الوجه الأول: تقولون إن طوفان نوح امتد سنة كاملة، فَنِيَ خلالها كل ذي حياة من طيور وبهائم وحشرات وإنسان، ما عدا أهل السفينة، وما نجا من بني الإنسان غير ثمانية أشخاص على ما هو مصرح به في الباب السابع والثامن من سفر التكوين.

---

١ – لخصنا بأمانة ما ذكره المؤلف خشية التطويل، ومن شاء رجع إلى الكتاب.

وقد أيد ذلك بطرس في رسائله الأولى والثانية، وأكد أن العالم القديم فني إلا من ثماني أنفس.

قال الشيخ رحمة الله: إن حادثة الطوفان كما يذكر أهل الكتاب مضت عليها ٤٢١٢ سنة شمسية –كتاب المؤلف ظهر منذ قرن تقريبا– وهذه الحادثة العامة الطامة لا يعلم الهنود عنها شيئا. قال ابن خلدون: أعلم أن الفرس والهند لا يعرفون الطوفان، ويقول بعض الفرس: إنه كان «ببابل» فقط!.

والحق الذي نجزم به أن الطوفان وقع لقوم نوح وحدهم، وأن أوربا وإفريقية والأمريكتين وأكثر آسيا الكبرى لم يغمرها الطوفان، ولماذا يحكم الله عليها بالغرق وهي لا تعرف ولم تسمع به؟.

وظاهر من التاريخ العبري أن الطوفان وقع بعد عصر بناة الأهرام في مصر، والمصريون ما تعرضوا للطوفان ولا غرق من أرضهم شبر ! ومعنى ذلك أن ما ذكره سفر التكوين عن هلاك العالم القديم كله لا أصل له.

الوجه الثاني: جاء في الباب العاشر من كتاب يوشع وفق الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤م ما يلي: « ١٢ حينئذ تكلم يسوع أمام الرب في اليوم الذي دفع الآموري» في يدي بني إسرائيل وقال أمامهم: أيتها شمس مقابل «جبعون» «لا تتحركي»! والقمر مقابل قاع أيلون ١٣ فوقفت الشمس والقمر حتى انتقم الشعب من أعدائهم، أليس هذا مكتوبا في سفر الأبرار، فوقفت الشمس في كبد السماء، ولم تكن تعجل إلى الغروب يوما تاما؟

وفي الباب الرابع من الحصة الثالثة من كتاب تحقيق الدين الحق المطبوع سنة ١٨٤٦م ص ٣٦٢ يقول: «أما غربت الشمس –أي تأخر غروبها– بدعاء يوشع إلى ٢٤ ساعة»؟

وتوقف الشمس في الفلك، وعدم جنوحها إلى الغروب مدة يوم كامل كما يروون وقع قبل الميلاد سنة ١٤٥٠..

مَنْ مِنْ أهل الأرض يذكر هذه الحادثة؟ إن أحدًا من كتَّاب التاريخ لم يشر إليها أو يتحدث عنها، وإذا كان عدم العلم العام بانشقاق القمر قادحًا في صحة الرواية، فالأمر كذلك في توقف الشمس ليوشع، بل إن توقف الشمس يوما أو بعض يوم أوغل في البعد، وأجدر بالإنكار.

ولأترك ما قاله صاحب إظهار الحق ولأعد إلى حوار الباقلاني مع ملك الروم! إنني لو كنت مكان الرجل، وسألني هذا القيصر عن انشقاق القمر لقلت له كلاما آخر..

لقلت له: أيها الإمبراطور الكبير، إن سلفا عظيما سبقك في حكم الرومان، جاءه كتاب من رسولنا يقول فيه: «أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين»، ثم يختم كتابه بقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٦٤)

أيها الإمبراطور، إن نبينا – صلوات الله عليه- عندما كاتَبَ سلفك لم يذكر له خارقة من خوارق العادات التي عرضت له، وإنما خاطب عقله، واستثار أنبل ما في نفسه، وذكر له أنه باق على إسلامه إن أبى الإمبراطور متابعته على ما جاء به، وأشهده على ذلك!!.

فإن رفض ملك الروم هذه الإجابة مني قلت له: إن شرحْتَ صدرًا بعقيدة التوحيد، ورفضت من الناحية التاريخية انشقاق القمر وتوقفت الشمس، فأنت مسلم مقبول الإيمان.

ولا يصدنك عن دين الله خبرُ راوٍ من الرواة حفظ أم نسي، واعلم أن من مفكري المسلمين ومفسري دينهم من اعتبر الانشقاق من أشراط الساعة، وأن من المتكلمين من توقف في أخبار الآحاد، كما قال إبراهيم النظام: « إن

القمر لا ينشق لابن مسعود وحده».. وابن مسعود هو الذي روي عنه الحديث المذكور.

ربما قال لي قائل: كيف تتهاون في حديث صحيح على هذا النحو؟! وأجيب: أن رد الحديث بالهوى المجرد مسلك لا يليق بعالم، وقد رد أئمتنا الأولون أحاديث صحاحا لأنها خالفت ما هو أقوى منها عقلا ونقلا، وبذلك فقدت مقومات صحتها، ومضى الإسلام بمعالمه ودعائمه لا يوقفه شيء! وقد قلت: إنني لا أربط مستقبل ديننا بحديث آحاد يفيد العلم المظنون، وأزيد الموضوع بيانا فأقول: إنني أومن بخوارق العادات، وأصدق وقوعها من المسلم والكافر والبر والفاجر، وأعلم أن قانون السببية قد يحكمنا نحن البشر بيد أنه لا يحكم واضعه تبارك وتعالى.

وعندما قرأت حديث الانشقاق شرعت أفكر بعمق في موقف المشركين؛ إنهم انصرفوا مكذبين إلى بيوتهم ورحالهم بعدما رأوا القمر فلقتين عن يمين الجبل وشماله، قالوا: سحرنا محمد، ومضوا آمنين سالمين لا عقاب ولا عتاب.

قلت: كيف هذا؟ في سورة الأنبياء يحكي الله سبحانه سر كفر المشركين بنبيهم محددين مطلبهم منه: ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ (الأنبياء:٥)، ويحكي القرآن لماذا لم يجابوا إلى مطالبهم: ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (الأنبياء: ٦) إن التكذيب بعد وقوع الخارق المطلوب يوجب هلاك المكذبين. فكيف يترك هؤلاء المكذبين بدون توبيخ ولا عقوبة بعد احتقارهم لانشقاق القمر؟

ويؤكد القرآن الكريم هذا المنطق في سورة الإسراء: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ (الإسراء: ٥٩)، فإذا كان إرسال الآيات ممتنعا لتكذيب الأولين بها فكيف وقع الانشقاق؟ بل كيف يقع أو يقع غيره والله يقول في سورة الحجر: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا

فِيهِ يَعۡرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(الحجر: ١٤-١٥).

ثم إن المشركين في مواطن أخرى ألحوا في طلب الخوارق الحسية: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (الأنعام: ١٠٩).

وفي سورة أخرى قيل للكافرين وهم ينشدون المعجزات الحسية: حسبكم القرآن فيه مقنع لمن نشد الحق:

﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾(العنكبوت:٥٠، ٥١).

إن مئات الآيات في سور كثيرة طوال العهد المكي دارت في إثبات الرسالة على محور واحد: إيقاظ العقل وتعريفه بربه واعتبار صاحب هذا الوحي إمام السائرين إلى الله المعتصمين بحبله، وتجاوزت مقترحات الكفار أن يروا آية مادية معجزة.

من أجل ذلك لم أقف عند حديث الانشقاق وأبيت بقوة أن أربط مستقبل الدعوة به أو بغيره من أحاديث الآحاد التي نصدم بأدلة أقوى منها. ولست بدعا في هذا المسلك، فأبو حنيفة ومالك ردوا أحاديث من هذا الطراز عارضها من دلالات القرآن ما هو أقوى منها.

إننا لا ننكر الخوارق من حيث هي، وإنما نناقش الأسانيد التي جاءت بها ونوازن بين دليل ودليل، وإيماننا بالخوارق هو الذي جعلنا نحن المسلمين نصدق بميلاد عيسى من غير أب، فالقرآن قاطع في هذه القضية، وإذا ثبت قول الله فلا كلام لأحد.

والقاعدة أن خبر الواحد يعمل به ما لم يكن هناك دليل أقوى منه فيصار إليه.

ونحن في ميدان الدعوة الإسلامية نواجه ماديين لا يؤمنون بشيء، وكتابيين يؤمنون ببعض ما عندهم ويكفرون ببعض، ومسلمين زحزحهم الغزو الثقافي عن قواعدهم فهم يتبعون كل ناعق.. ومن ثم يجب أن تكون الدعوة للأركان المستيقنة، وأن يبتعد الدعاة عما اختلفت فيه أنظار المسلمين أنفسهم، وفي القطعي ما يغني عن الظني، وفي الكتاب الكريم وما اشتهر من السنن غنية عن الغرائب والآراء الاجتهادية.

لقد راقبت الموضوعات والشواهد التي يعيش كثير من الناس في جوها فوجدت خليطا مزعجا من مرويات نصفها واهٍ، والنصف الآخر لا يكاد يفهم على وجهه الصحيح إلا نادرا، قلت: كيف تنجح دعايتنا للإسلام بهذا الأسلوب؟

إنه على قدر العناية بالثانويات يقل الاكتراث بالأصول! ولا يجوز ربط ديننا العظيم بأمور ما دارت في خواطر الصحابة والتابعين وهم ينشرون الإسلام في المشارق والمغارب.

وحتى لا يفهم البعض أنني أنكر خوارق العادات، أذكر أنني قرأت في الصحاح من كتب السنة قصصا تنضح بالصدق والخير، عرضتْ للنبي ﷺ وهو مع صحابته، أعني أنها وقعت بين قوم مؤمنين لتزيدهم إيمانا، وإذا نقلت إلى كافرين محت من نفوسهم ظلمات.

وفي دراستي للملل والنِّحل، قرأت قصصا مشابهة لها تمام الشبه في بعض الأناجيل! فعجبت لهذا الاتفاق، وقبل أن أنقل ما رواه البخاري من تكريم الله لنبيه، أقول: إن رسولنا ﷺ اختُصَّ من بين إخوانه السابقين بمعجزة عقلية عامة دائمة أو حسب تعبيره صلوات الله عليه: « أوتيت وحيا يُتْلى»، ثم شق طريق البلاغ وسط أنواء وأعباء تهد الكواهل الشداد، ولكنه

وفق السنن المعتادة أدى الأمانة ونجح كما لم ينجح أحد.

وفي أثناء ذلك قد يجوع وهو يواجه أزمة، أو يرهقه حصار! وقد يجرح ويهزم في إحدى مراحل الجهاد، وقد يتبعه الرعاع بالحجارة يدمون قدمه وهو عائد من محاولة ضائعة الثمرة، وهو مع وثاقة الإيمان يهتف بربه: «إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي».

من أولى بأن تخرق له العادات أحيانا من هذا الرسول؟ فانظر بعض ما يروى من ذلك:

روى البخاري عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة أنه سمع أنس بن مالك يقول:

قال أبو طلحة لأم سليم: لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفا أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟

قالت: نعم، فأخرجت أقراصا من شعير، ثم أخرجتْ خماراً لها فلفَّت الخبز ببعضه، ثم دسته تحت يدي، ولاثتني ببعضه، ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ.

قال: فذهبت به فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد ومعه الناس، فقمت عليهم، فقال لي رسول الله ﷺ: أأرسلك أبو طلحة؟ فقلت: نعم، قال: بطعام؟ قلت: نعم.

ويظهر أن رسول الله أبى أن يأخذ ما أرسل إليه من طعام وقرر شيئا آخر كما جاء في بقية الحديث.

فقال رسول الله ﷺ لمن معه: قوموا. فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته. فقال أبو طلحة: يا أم سليم قد جاء رسول الله ﷺ بالناس وليس عندنا ما نطعمهم! فقالت: الله ورسوله أعلم. فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله ﷺ ، فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه، فقال

رسول اللّه: هلم يا أم سليم ما عندك، فأتت بذلك الخبز، فأمر به رسول اللّه ﷺ ففتَّ، وعصرت أم سليم عكة فآدمته، ثم قال رسول اللّه ﷺ فيه ما شاء اللّه أن يقول، ثم قال: ائذن لعشرة فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: ائذن لعشرة، فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: ائذن لعشرة. فآذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا. ثم قال: ائذن لعشرة، فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا. والقوم سبعون أو ثمانون رجلا؟!

ونترك هذه الصورة العجيبة ونقلب من كتاب التاريخ صفحة إلى الوراء لننظر صورة أخرى مشابهة وقعت لنبي اللّه عيسى ابن مريم، وهو من المرسلين أولي العزم، وقد كافح في سبيل اللّه وتحمل من اليهود بلاءً شديدا.

وقد كان مع عيسى حواريون آمنوا به وثبتوا معه، وشاء اللّه أن يريهم آية من آياته التي أيد بها نبيه عيسى ننقلها من كتاب «متى»؛ لما فيها من شبه بما وقع لنبينا عليه الصلاة والسلام.

(١) فلما خرج يسوع أبصر جمعا كثيرا، فتحنَّن عليهم وشفى مرضاهم. (٥٥) ولما صار المساء تقدم إليه تلاميذه قائلين: الموضع خلاء، والوقت قد مضى(١٦) اصرف الجموع يمضوا إلى القرى ويبتاعوا لهم طعامًا، فقال لهم يسوع: لا حاجة لهم أن يمضوا، أعطوهم أنتم ليأكلوا(١٧)، فقالوا له: ليس عندنا ها هنا إلا خمسة أرغفة وسمكتان (١٨) فقال: ائتوني بها إلى هنا (١٩) فأمر الجموع أن يتكئوا على العشب، ثم أخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين ورفع نظره نحو السماء وبارك وكسر وأعطى الأرغفة للتلاميذ، والتلاميذ للجموع (٢٠)، فأكل الجميع وشبعوا ثم رفعوا ما فضل من الكسر اثنتي عشرة قفة مملوءة (٢١) والآكلون كانوا نحو خمسة آلاف رجل، ما عدا النساء والأولاد.

ونلفت الأنظار إلى أن تلك الخوارق لم تقع بين كفار يجحدون، وإنما وقعت بين مؤمنين استقر في صدورهم اليقين، وهنا قد يسأل سائل: ألم يكن الكفار أولى برؤية هذه الخوارق ليؤمنوا؟ ونجيب بأن الذين كفروا من قبل قد قست قلوبهم واستغلقت عقولهم فهم لن يتغيروا برؤية المعجزات التي يظهرها الله على أيدي رسله، وإذا رأوها فسيقولون: سحر أو شعوذة، أو أي شيء آخر.

ولعل ذلك هو السر فيما رواه متّى عن عيسى عليه السلام لما طُلبت منه آية: «جيل سرير فاسق يلتمس آية، ولا تعطى له آية إلا آية يونان (يونس) النبي، وتركهم ومضى».

وفي الأجيال المتعصبة المستكبرة على الحق يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (يونس:٩٦، ٩٧).

إن عالم المرويات ممدود الأرجاء، وما نحب أن يشتغل كل الناس بالتجوال فيه؛ فإن ذلك لا يصلح له إلا رجل يجمع بين أمرين: الأول معرفة المقبول من المردود، الثاني معرفة الصحيح على وجهه المراد، فقد رأيت ناسا يروون الحديث الصحيح بيد أن معناه في عقولهم باطل! وقد أصاب الإسلام من هؤلاء ضرٌّ شديد!.

بل إن فسادا واسعا وقع في عالم الاقتصاد، وفي فقه العلاقات الدولية، وفي العلاقات بين الجنسين، وفي بيان أصول الحكم بسبب العوج في الفهم أو القصور في الفقه اللذين يصيبان مشتغلين بالمرويات.

والواجب أن تزداد عناية المسلمين بفقه الكتاب، فإن النكبة في هذا الفقه لا يداويها الاستبحار في السنن، كما أنه لا بد من ذود العقول الكليلة عن العبث بما يقع بين يديها من مرويات، فهي تسيء أكثر مما تحسن.



أمة الخير يجب أن تؤدي رسالتها

بعد النومة الطويلة أو الإغماءة الطويلة التي أصابت المسلمين في الأعصار الأخيرة جاءت يقظة مرجوة الخير، وشرع العامة والخاصة يمسحون عيونهم ويحركون أعضاءهم، ويعملون على استئناف المشوار العتيد.

ونظرت إلى أمتي ترمق المستقبل بأمل، وتنشط كي تتقدم وتزاحم وتسبق، ولكنها لا تتقدم خطوة حتى تحاصرها العقبات، وتحفها المتاعب! والمحزن أن هذه المتاعب من عند نفسها أكثر مما هي كيد العدو وسعيه لهزيمتها..!

لقد شعرت بأن أمتنا نسيت رسالتها، أو جهلت هذه الرسالة من زمان بعيد، إن هذه الرسالة من وَضْع الله لنا لا من مزاعمنا لأنفسنا، أو دعاوانا لجنسنا! والأمة التي لا تعرف لها هدفًا قد تتحرك في موضعها، أو تتحرك في اتجاه مضاد، أو تصيب نفسها وهي تريد إصابة غيرها، إن الطيش يحكمها لا الرشد!.

وقد حدد القرآن الكريم رسالتنا في هذا العالم فقال: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ ﴾ (آل عِمْرَان : ١٠٤). أهي دعوة نظرية إلى الخير تظهر في الملصقات والكتيبات والنشرات العامة؟ لا، يجب أن تقدم الأمة من نفسها نموذجا حيًّا أو أسوة حسنة لما تدعو إليه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ... ﴾ (الحج: ٧٧، ٧٨).

إن عمل الخير والدعوة إلى الخير سمات الأمة الظاهرة، وملكاتها الباطنة، ووظيفتها الدائمة، وشهرتها التي تملأ الآفاق، وإجابتها عندما تسأل عن منهجها وغايتها: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا... ﴾ (النَّحْل : ٣٠).

وماذا ينتظر من أمة تحمل رسالة السماء وتتبنى دعوة الحق إلا أن تكون حارسة للشرف، مترفعة على الدنيا، متواصية بالمرحمة، منظورا إليها محليا وعالميا بأنها سند المظلوم وجار المستضعف، ويجب أن تكون قديرة على ذلك وسمحة به!!

وقد بيَّن الله أن الأنبياء – وكذلك أتباعهم – ليسوا باعة كلام ولا أدعياء فضل، بل هم كما شرح في كتابه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ (الأنبياء: ٧٣).

فهل تولت أمتنا هذا المنصب؟ أو هل تأهلت له بفقهها ومسلكها، أم زاحمت غيرها على طلب المتاع والتعلق بالدنيا؟ الذي يبدو لي أن المسلمين –شعوبا وحكومات– هبطوا دون المستوى المنشود، بل هبطوا دون مستوى غيرهم ممن لم يشرفهم وحي، ويكلَّفوا بحمل الرسالة!.

والمرء قد يمشى الهوينى غير آبه لما أمامه إذا كان خالي البال لا يشغله واجب محدد، أما إذا كان في سباق مهم، ومع أنداد قادرين أو خصوم قاهرين فإنه يحث الخطى، ويجمع العزم، ويتجاوز العقبات..

والمسلمون مذ بدءوا تاريخهم ما صفا لهم الجو، ولا خلا لهم الطريق..! فكل استرخاء أو تخاذل سيستغله شياطين الإنس والجن للنيل من الحق وتركه في المؤخرة، والانفراد دونه بالصدارة.. وهذا ما وقع؛ فنحن المسلمين الآن في العالم الثالث على حين أمسك بزمام الحضارة من ينكرون الألوهية أو من يتخيلونها «عائلة مقدسة».

وهم لم يعوقونا عن الانطلاق في أغلب مراحل تخلفنا، بل نحن الذين فرطنا وتكاسلنا وتركنا المجال فسيحا أمام غيرنا فملأه لما أخليناه.

إن عناوين الخير والمعروف –وهي معالم رسالتنا– لم تساندها حقائق قائمة، فكانت النتيجة أن تلاشى صدى هذه الكلمات النبيلة، فاختفى وقعها

من نفوس السامعين، وظنت أمم كثيرة أن المسلمين طلاب شهوات أو قطاع طرق، وأنهم يوم يملكون القوة يسخرونها لإعلاء جنس، وتحقيق أمجاد وطنية أو قومية، وهذا كله إفك! بيد أن المسؤول عن انتشار شائعاته أصدقاء جهلة أو عجزة كما يحمل المسؤولية أيضا أعداء مرجفون مريبون..

تدبرت هذه الآية: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ...﴾ والآية الأخرى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾، فرأيت أن صاحب الرسالة لا يفتح العقول بسكين، إنما يفتحها بكلمات الله المنيرة التي تنزلت عليه، وأنه منهي عن طاعة الكافرين، مأمور أن يجاهد بهذا القرآن من تنكروا له واعترضوا سيره..

وأعلم بدراستي وتجربتي معًا أن هناك مستكبرين يستبيحون غيرهم ويجتاحون حقوقه المادية والأدبية، وأن الاستسلام لهؤلاء وضاعة، وترك الحقيقة تداس تحت أقدامهم جريمة! إن هؤلاء لا بد من مقاومتهم وحشد أهل اليقين لحسم شرهم! في هؤلاء يقول الله لنبيه: ﴿فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ (النساء: ٨٤).

تدبرّ هذا السياق، وكيف أبرز عدوان المعتدين ، وكيف يستعان بالله على كفكفة شرهم وكسر بأسهم! إن المؤمنين يلقون هجوما فلا يجوز لهم أن يفروا أمامه! ومن أجل الله، وفي سبيل الله يتحملون أعباء هذا التصدي.

إننا لم نبدأ عدوانا، لقد أنذرّنا بالوحي، وجاهدنا بالكلمة، وشرحنا بغيتنا وهي تحقيق الخير والمعروف في الدنيا، وتحويل الأرض –حيث قدرنا– إلى ساحات عبادة الله، وتراحم بين عباده لا يدع في المجتمع جائعا ولا عاريا ولا محروما ولا محقورا..

تلك أهداف أمتنا كما رسمها القرآن الكريم: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ

أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ (الحج: ٤١).

لكن المأساة الكبرى أن هذا الهدف نسيه مَنْ نسيه، ولم يشغل نفسه ولا قومه بالإعداد العلمي الواسع له، ولم يكلف نفسه محو الشبهات التي أثيرت عمدًا حول مقاصده؛ فمضت الأمة في طريق مليء بالغيوم، وأخذت تقاتل دون أن يكون بين يديها عرض جيد للحق وتطبيق أجود لمبادئه، وكنت أقرأ وأنا طالب أن علاقتنا بغيرنا هي الإسلام أو الجزية أو الحرب!!

إن الذي أرسل هذا الكلام على عواهنه نسي الوظيفة الأولى للأمة، وهي الدعوة السليمة، وإرسال أشعة كاشفة عما تريده للعالم من رشد وسعادة..

قد يدهش امرؤ لهذا القول ويرد على عجل: كان آباؤنا يدعون إلى عقيدة التوحيد، ويستندون في جدالهم عنها إلى مواريثهم من كتاب وسنة، فلا عذر لأحد. ونمضي نحن في توضيح ما نعني؛ إن عقيدة التوحيد جذع شجرة باسقة مزهرة مثمرة لها سبعون غصنا، أو سبعون شعبة يلتمس الناس تحتها الظل والجنى، لماذا ترك المجال مفتوحا أمام الأعداء يزعمون أنها شجرة شوك لا زهر فيها ولا ثمر؟.

إن الخاصية الأولى للأمة الخاتمة أنها غيور على الحقيقة، لا تطيق تشويهها ولا إغفالها، ومن ثم فهي لا تسكت عن أمر بمعروف أو نهي عن منكر! فإذا بليت هذه الأمة بسلطات تكمم الأفواه وتدع العامة والخاصة لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرًا فهل هي بذلك الصمت الجبان تبلغ رسالة الله، أم هي تقطع الطريق إليها؟.

لقد أخذ الأحرار على ملك فرنسا لويس الرابع عشر أنه قال: أنا الدولة! يعني أنه وحده المسؤول عن شئونها لا شريك له.

فإذا كان السلطان في بلاد الإسلام يردد بلسان الحال أو المقال هذه

الكلمة فما الفرق بين دولة الإيمان ودولة الكفر، وأين يجد الناس ساحة المساءلة والشورى، والأخذ والرد دون تهيب ولا توجس؟

إن العقيدة الإسلامية أساس حضارة راشدة راقية، ولا يسوغ أن يتدرَّع بها من يخدمون مآربهم وأغراضهم. ونحن مكلفون بتبليغ رسالة نازلة من السماء لا جمل أوضاع من صنع الناس، لا سيما أن ركام الأخطاء الذي آل إلينا على مر القرون جعل المسلمين المعاصرين يضطربون في الفهم والمنهج، بل جعلهم يظنون أن الحكم من نوازل القدر التي لا ترد، وأن استقباله كاستقبال الآفات والمصائب الوافدة يكون بالصبر والاسترجاع! وقد أورثتهم هذه الجبرية الخرافية استسلامًا واستكانة لضروب الحكم الاستبدادي قلما يعرفان في جنس آخر.

إن الدولة صاحبة الرسالة تكرس قواها المادية والأدبية في الداخل والخارج لإنجاح رسالتها وشرح حقائقها على نحو رائق جذاب، وليس يجديها زخرف القول إذا كانت صورتها الداخلية دميمة؛ إذ الناس بعد التروي والتأمل يعولون على الموضوع لا على الشكل..

والوظيفة الأولى لدولة الإسلام أن ترى الأمم الأخرى آفاق الخير الذي تدعو إليه مشرقة في حياتها هي؛ في أخلاقها وتقاليدها وعباداتها ومعاملاتها وآدابها وفنونها وملاهيها وأسواقها وقراها ومدنها؛ أي في جميع أنشطتها التي تكشف عن أعمالها وآمالها.

إننا –باسم الإسلام– ندعو إلى الخير ونفعله، فما وزن هذه الدعوى العريضة؟ وما آثارها؟.

إنني أقرر مطمئنا أننا لن نحسن تبصير الجماهير الهائمة في شتى القارات، وليست لدينا أجهزة قديمة قائمة من قرون على البلاغ المبين. وقد حسب لفيف من العرب أن الإسلام ثروة قومية يمكن أن ينتفع بها الجنس العربي – كثرة النفط مثلا – فتركوا الإسلام يتمدد بقواه الذاتية، وبالجهود

الشعبية، وانشغلوا هم بمراسم الحكم ومطالبه.. فلما وقعت الخلافة في يد الأتراك بدءوا بداية حسنة في خدمة الإسلام، ثم انتقلت إليهم علل الخلافة العربية، فضاعوا وأضاعوا.

وطلع علينا هذا العصر الكئيب فإذا رايات الإسلام تطوى علانية تحت شعارات العروبة التي تعد محمدًا بطلا قوميا! وأمام زحف الملل والفلسفات الأخرى التي خلا الجو لها فباضت وأفرخت..

تلك خسائر فادحة نزلت بأمتنا ورسالتنا، والعلاج أن نعرف: من نحن؟ وما رسالتنا؟ وكيف نؤديها؟ وكيف نتخلص من أخطائنا؟ وكيف نستفيد من تجارب النصر والهزيمة، والمد والجزر؟

ولنعلم أن عباد الله في المشارق والمغارب ليسوا مستعدين لأن يتبعوا قيصرا جديدا يلبس عباءة الإسلام، وأن علماء الدين الذين يشغبون على الشورى ليسوا علماء ولا متدينين، إنما هم قذى يجب تنحيته عن الطريق.

وأعرف أن الاستبداد السياسي عاد إلى المجتمعات من الباب الخلفي في شكل تنظيمات دستورية مزورة! والحقيقة لا تخفى وراء هذه الألبسة الخادعة مهما تراكم حولها ذباب المنتفعين والمنافقين..

الإسلام وأمته أكبر من هذه المظاهر! ولن يصدق الناس أننا رجال أحرار ننحني وحسب أمام الواحد القهار، ما بقيت صفوفنا يتقدمها قزم تغضي أمامه العيون، وتخرس الألسنة، لأمر ما!.

وفي عصرنا هذا تتودد المذاهب الأرضية إلى الناس بكفالة ضروراتهم البدنية، وإشباع نهمتهم منها! والإنسان بطبيعته يكره ذل الحاجة، ويضيق بكبتٍ لا نهاية له، ويتعلق بأي نظام ييسر له الضرورات، ويعده أو ييسر له بعض المرفهات..

هل تجهم الإسلام لهذه الطبيعة البشرية؟ إن إيراد السؤال على هذا

النحو خطأ! هل لم يسارع الإسلام إلى كفالة هذه الحقوق البشرية؟

في صدر حياتي ألفت بضعة كتب شرحتْ تلك القضية، كنا – أنا وسيد قطب ومصطفي السباعي – نذود الجماهير المتطلعة عن اعتناق الشيوعية؛ لأن بريقها استهواهم، فقدَّمنا البديل من تعاليم الإسلام.

وإنما استهوى الناس هذا البريق لأن فوضى التملك من حرام تسربت إلى أغلب الأموال، ولأن تبلد المشاعر بإزاء آلام المحرومين قطع أوصال المجتمع وبعثر في أكنافه بذور الحقد!.

وكثير من المشتغلين بالثقافة الإسلامية يحسبون أن الإسلام بعدما قضى على الأصنام في الجزيرة العربية قد أدى الرسالة وبلغ الأمانة، وليعشِ الناس حسب ما يرغبون من الناحيتين الاقتصادية والسياسية؛ ففي الأمر متسع وليكن ما يكون..

وهذا الجهل الفاضح أثقل الأفكار والأقدام، وأحكم حولها القيود فكانت العاقبة أن وثب العالم إلى الأمام بخطوات فساح، وضبط شئون الحكم والمال وفق ما يرى مصلحته، أما المسلمون فوقفوا أو تخلفوا، ومن أراد بهم خيرًا حاول إلحاقهم بقطار الشرق أو الغرب، لأنه لا يعرف حقيقة الدين من رجال قاصرين، ومن هنا نوجب على الحكومة الإسلامية أن ترقب سير المال في الحياة العامة، وأن تدرك خطورة انحرافه أو طغيانه على العقائد والأخلاق.

ولا أجد أي حرج في اقتباس ما استحدثه البشر من أنظمة ووسائل لحماية الفرد من طغيان الاستبداد ورأس المال.. والواقع أن العصور الحديثة لها اجتهاد مثمر ناجح في تنظيم الشورى، وفي إدارة الأعمال، وفي حماية الفقراء والكادحين.

ونقل هذه الوسائل إلى بلاد الإسلام ليس بدعة ضلالة كما يزعم المتدينون الجهال، بل تكاد تكون واجبا حتمًا بعد عهود التخلف والضياع

التي رانت علينا..

ومن السفه استبقاء الشورى في طورها الساذج أيام سقيفة بني ساعدة، واستبقاء العطاء يدًا تدفع ويدًا تأخذ وحسب!.

إن العمران البشري اتسعت دائرته وتعقدت أحواله، وعلينا مواجهة ما جد بأقضية ذكية مجدية، وما فكرنا يوما في تعطيل نص، أو الشذوذ عن قاعدة، وإنما سعينا إلى تجاوز عصور الانحطاط والهزيمة التي طال ليلها، مستندين إلى مواريثنا المحفوظة وحدها..

ومن واجب الدولة ضبط العلاقات بين الجنسين داخل إطارها الصحيح؛ فإن ذوي الفطر السليمة ضاقوا بالتبرج الجاهلي الذي يصحب الحضارة الحديثة، وما انتهى إليه من انحدار وتهتك..

وقد قلنا: إن العجز الفكري والنفسي عند لفيف من المتدينين من وراء هذا التطرف الحيواني الكاسح؛ فهم لا يفهمون المرأة إلا وسيلة متعة خاصة، وينكرون عليها إنضاج ملكاتها الروحية والعلمية، ولا يعون أن لها أي حصة في ميادين التربية وآفاق المجتمع، وخدمة الدين والدولة..

وقد أعياني الحديث مع شباب يوجب تغطية وجه المرأة ويديها، ويحرم عليها الجُمَع والجماعات، ويذهب إلى جملة من المرويات الشاذة أو المنكرة كي ينزل الدين على رأيه! قلت لهم: إن عملكم هذا سيجعل النهضة النسائية تزيغ عن الدين، وتلهث وراء الغرب.

وعندما تقولون: لا بد من ضرب النقاب على الوجه فسوف يسحب النساء الخمار عن الرؤوس، وعندما تقولون: لا بد من تخبئة الأيدي داخل قفاز فسوف تتعرى السواعد والأيدي جميعا. إن الغلو يستتبع الغلو، إنكم تكذبون على الإسلام من جانب وهن يكذبن على الإسلام من جانب آخر، وكلاكما شر من صاحبه!.

وأرى أن تَدّخل الدولة في موضوع الزواج وتكوين الأسر؛ فإن النفاق الاجتماعي وتقاليد الرياء جعلا من عقد الزواج شيئًا يقصم الظهور، ويستدعي التريث والإرجاء، وإلى أن يتم بعد لأي يقع في صمت وخفاء ما يندى له الجبين، وما لا يقبله دين!!.

وثَمَّ أمر جدير بالإبراز والإثارة! إن السياسة الفاسدة تبقى وتنمو في جو الثقافة الفاسدة، وهي إذا لم تجدها سعت لخلقها واحتضان رجالها.

وأرى أن كثيرا من المعارف المسمومة والفتاوى الكاذبة والأحكام الطفيلية، قد عاشت وغلظت في حضانة الحكم الفردي والاستبداد السياسي، وقد لاحظت أن جماهير المسلمين خلال عدة قرون احتبست في مجادلات لا تساوي قلامة ظفر، وهاجت أعصابها في خلافات محمومة لا طائل تحتها..

وذلك في وقت كانت رقعة الإسلام تنكمش، وأعداؤه يشتدون وشئونه العظمى يبت فيها التافهون..

إنني شعرت بأن هذا مراد، وإذا لم يكن مخططا فقد تم لمصلحة الطاغين الذين يعنيهم أن تنشغل الأمم عنهم وعن مباذلهم..

وفي عصرنا هذا تقوم شتى الفنون والألعاب الرياضية بما يشبه هذا الدور.. ولا أدرى لماذا تهتاج أمة لهزيمة رياضية ولا تهتز لها شعرة لهزائمها الحضارية والصناعية والاجتماعية؟!

والحكم الإسلامي في قرون خلت لم يرتفع إلى مستوى الإسلام نفسه، فلا عجب إذا فشل في تبليغ رسالته وفي الدفاع عنه عندما تعرض له الأزمات..

وقد رأينا الخلافة العباسية في الزحف الصليبي الأول؛ لقد عجزت عن حشد طاقات الأمة بل عن جمع صفوفها، فإذا الحملات القادمة من الغرب

تعوم في دمائنا، لا يردّها رادٌّ! وبقيت الخلافة الواهنة تترنح حتى ماتت تحت أقدام التتار المتعاونين مع الصليبية في السر، والمسلمون لا يدرون!.

وتكررت المأساة نفسها مع الخلافة العثمانية، حذوك النعل بالنعل! ونجح الاستعمار الصليبي الثاني في نبذ الخلافة العظمى والخليفة المسكين نبذ النواة!! ودفعت جماهير المسلمين من دمها ومن كرامتها ثمن فساد الساسة والثقافة في عالمنا الإسلامي المريض!.

وقد تحدثت عن هذا التاريخ بشيء من التفصيل في كتابي «الدعوة الإسلامية تستقبل القرن الخامس عشر»، وما كررت الإشارة إليه هنا إلا لأني رأيت ناسا يعملون في الحقل الإسلامي لا يعلمون معاقد الدين ولا غاياته العظمى، وهم يجتهدون في استحياء العلل القديمة، يحسبونها أسباب نهضة وما دروا أنها أسباب البوار!!.

إن الدولة الأمينة على الرسالة الإسلامية عليها واجبات ثقيلة نحو الأمة التي تقوم على شؤونها، ونحو الأجيال الناشئة التي تقوم على تربيتها، يمكن إجمالها في النقاط التالية:

أ-تجديد علوم الدين، وتبصير طلابه بالحقائق الرئيسية، وتجاوز القضايا والخلافات التي خلقها الفراغ والترف في بعض الأزمنة، وبيان ما هو قطعي وما هو ظني، وما هو أصلي وما هو فرعي، وتناول المذاهب المختلفة على أنها وجهات نظر ليست معصومة من الخطأ.

إن تدريس الدين الآن بحاجة إلى إعادة نظر! فهناك معلومات تقدم للكبار فقط تشحن بها عقول الصغار، وهناك أركان للأخلاق والسلوك تراجعت لتحل محلها صور فقهية ثانوية!.

ب-إن العناية بالتربية تتطلب محو الخصومة القائمة بين الفقهاء والصوفية، على أساس تجريد التصوف من البدع والخرافات التي التصقت به، ورده إلى كتاب الله وسنة رسوله ردًّا يدرب الناس على مقام الإحسان،

أعني مراقبة الله ومشاهدته..

إن الإنسان لا يرقى أبدا بعقله وحده، فكم من ذكي العقل غزير العلم تراه خبيثا لا تُؤمن أطماعه، وكم من منافق عليم اللسان!.

وأعرف أن عددا من المنتمين إلى التصوف دعيٌّ لا ضمير له، غير أن هذا لا يزهدنا في تعهد القلوب بما في هذا العلم من حكم ثمينة، وتجارب رقيقة.

ولست أحب أن ينفصل العلم عن التربية الروحية، ولا أن تنفصل التربية الروحية عن العلم، فلا قيمة لأحدهما دون الآخر.

ج-جماهير المسلمين فقيرة إلى تدريب مستمر على الشئون المدنية، وهي بحاجة ملحة إلى مهارات كثيرة في ميادين الحياة العملية، وتخلفها في هذا المضمار يهزم الإسلام وينال من قدرته على قيادة الناس.

وإنه ليحزنني أن يكون المسلم – لغير سبب واضح – أقل من غيره إجادة للحروف المختلفة. والحق أن ما نراه الآن هو أثر التدين المغشوش الذي سيطر على المسلمين حينا من الدهر، وجعل فهمهم قاصرًا للدين والدنيا معا..

د-أرى تنظيم فرق للفتوة، أو بتعبير العصر فرق للكشافة والجوالة: إن الرياضة البدنية تصنع الأجسام والنفوس صناعة حسنة، وتنشيء مشاركات اجتماعية طيبة..

والاهتمام بالرياضة لا يكون بإقامة بعض الأندية المتخصصة في لعبة كذا أو كذا.. ربما أفاد ذلك بعض المنتمين لهذه الأندية، على حين تتحول الجماهير إلى طوائف من المشجعين العاطلين!!.

وقد راقبت الفرق العربية التي تذهب للمباريات العالمية فوجدت أغلبها يعود فاشلا صفر اليدين من أقل الجوائز.. أما الدول العظمى فتظفر بأغلى

الجوائز، وتكسر أرقاما قياسية كما يقولون، فأدركت أننا متعبون جسمانيًّا وروحيًّا على السواء! وعلاج ذلك العجز يبدأ من تصحيح القاعدة الشعبية نفسها.

قد تقول: ثم ماذا بعد أن تنشأ للإسلام أمة قوية الروح والجسد، قوية العقل والعاطفة؟ أجيب: لن تكون لهذه الأمة مطامع جنسية أو مادية، ولن تزعم أن الدم الآري أفضل من الدم السامي، أو أن أولاد يعقوب أشرف من أولاد إسماعيل.

إن رسالتها أن تكون مع المظلوم حتى ينتصف، ومع المحروم حتى يستغني، ولن تكون لها قداسة إذا أهانت الحق، أو استوحش الحق في جنباتها.

رسالة الأمة -كما شرحها كتابها- فعل الخير، والدعوة إليه، عمل المعروف ومحو المنكر!.

ومعنى الخير مركوز في فطرة البشر وقد يضبطه الوحي الإلهي ويزيل ما يشوبه من لبس، وكذلك معنى المعروف، فإن العقل والنقل يتطابقان غالبا على إبرازه ودعمه..

وإيراد رسالة الأمة تحت هذا العنوان مقصود حتى يعرف القاصي والداني ما هي وجهتها وما هي شرعتها؟

وعندما نقوم وفق معالم أسلافنا فستكون تلك صبغتنا في المجتمع الدولي، وقد نسفك دماء أبنائنا لنحرر الزنوج في جنوب إفريقية لا لشيء إلا لإرضاء الله وإقرار الحق!!

إن أسلافنا الأوائل عندما قاتلوا قديما كانت تتملكهم هذه النزعة النبيلة، ومن زعم أن الاستعمار الروماني أو الفارسي كان جديرا بالمهادنة فهو مفترٍ جريء.

وما أنكر أن المسلمين في أعصار شتى ملك أمرهم من ظلمهم وظلم

الناس معهم، وسوَّأ سمعتهم وسمعة الدين الذي نبت بين ظهرانيهم! على أننا لم نفلت وما يفلت غيرنا من عقاب الله، ونحن نقرأ في كتابنا أن المستقبل لا تصنعه الأماني الخادعة، وأن مزاعمنا ومزاعم غيرنا لا وزن لها عند الله الذي يقول: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ (النساء: ١٢٣).

إن دينًا يزن الأعمال بمثقال الذرة لا يقبل الفوضى الهائلة التي تقع بين الناس، سواء أكانوا مسلمين أم كانوا هودًا أو نصارى.



أما لهذا الحقد من حد؟

كان لا بد من رسالة جديدة تصحح الأخطاء الجسيمة التي انتشرت بين الناس! ربما عرف أصحاب العقول المتوسطة أن الأصنام شيء لا ينفع ولا يضر، وأن عبادتها ضَرْب من السَّفه البيِّن، أفتظن أصحاب هذه العقول يكتشفون الأغلاط السيئة التي دسها أهل الكتاب في أطواء كتبهم؟ إنهم قد يستبشعونها وقد يتحيرون أمامها، وقد يستبعدونها في أعماقهم، وقد يحاولون إمرارها!!

وذلك ما حدث، ومن ثَمَّ شاع بين الناس أن الله يفعل ويندم، ويذكر وينسى، ويغضب فيطيش به غضبه، وأنه قد يتجسد ويمشى على الثرى، ويأكل ويشرب ويصارع واحدًا من خلقه... إلخ.

كما شاع أن المرسلين من لدنه يسرقون ويزنون ويسكرون ويحتالون ويقتلون... إلخ، فإن يكن هذا شأن قمم الخليقة فماذا ينتظر من السوقة؟!

كان لا بد من رسالة جديدة تشرح الصواب وتمحو الضلال، وتنصف حقيقة الألوهية، وتبرئ منصب النبوة، وتضع الجماهير أمام الحق الذي تاهوا عنه دهرًا طويلا.. وما كان يقدر على هذه المهمة الصعبة أحد قط، إلا محمد والوحي الذي جـاء به ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ ﴾ (البينة: ١)

ومع أن الكهنة على اختلاف رتبهم تفرقوا في أقطار العالم ينشرون أفكارهم العليلة، فإن القرآن الكريم ناداهم برفق، ولم يكشف مقالتهم السيئة بل قال: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦ ﴾

(المائدة: ١٥- ١٦).

إنه لم يذكر بتفصيل ما هم به متهمون! مع أن تهمتهم هي الافتراء المنكور على الله ورسله، وذلك تأليف لهم، وإغراء بالعودة إلى الحق، ومنع للإحراج.

ومع ذلك فلا يزال القوم يخاصمون القرآن ونبيه الهادي الكريم، ولا يزالون يطيرون شرقًا وغربًا ومعهم صحائفهم المعتمة ملأى بما يسخط الله ويحط من أقدار النبيين!.

لقد كانت رسالة محمد حدًّا فاصلا بين عهدين، عهد اعتكر فيه رونق الدين وغلبته شوائب دخيلة. وعهد تألق فيه التوحيد، وتقرر فيه ما ينبغي للذات العليا من تمجيد وتنزيه، كما تقرر فيه ما يجب على البشر من انقياد لله وإنفاذ لأوامره، يتقدمهم في ميدان العبودية رسل صالحون، أتقياء شرفاء ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٦، ٢٧).

يستحيل أن يحقد على محمد رجل له ثقافة محترمة أو عقل بصير! لماذا يحقد عليه؟ ألأن كتابه يصف الخالق الأعلى فيقول:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ (البقرة: ٢٥٥)، أو لأن الله تبارك اسمه يتحدث في هذا الكتاب عن نفسه فيقول: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ (يونس: ٦١)؟

أهذه هي الجريمة التي ارتكبها محمد؟ أو كان من الممكن أن يكون رجلا صالحًا لو أنه وصف الله بالغفلة عما يقع أو الندم على ما فعل؟

هل في الدنيا كتاب أثنى على الله بما هو أهله وأسند له صفات الجمال والجلال، وخصَّه بالأسماء الحسنى، وجعل الأفئدة تَوْجَل من خشيته، أو تنشرح بمحبته كهذا القرآن الكريم؟ أذلك ما يجعل أهل الكتاب يشرِّقون ويغرِّبون للتنفير منه والتحامل على صاحبه؟.

الحق أني أنظر إلى رجال الكهنوت الناقمين على محمد فلا أرى في سيرتهم ولا في سريرتهم إلا ما يثير الزراية.

إن اليهود عاشوا في جزيرة العرب عدة قرون قبل ظهور الإسلام فماذا فعلوا ضد الوثنية؟ لو أن عُشْر تعصبهم للإسلام وبغضهم لرسوله وجَّهوه ضد الجاهلية الأولى لزالت أو خف ظلامها، إنهم عاشوا على استبقائها وإيقاد الفتن بين أهلها، وكأنما كانت مهمتهم أن يختالوا بما ورثوا من علم مغشوش، وأن يعدُّوا الأميين غنيمة باردة، يأكلونها باسم الله خالق الشعب المختار!! أتبكي الإنسانية على دين تلك حقيقته وهذا تاريخه؟

ولو أن رجال النصرانية أحسنوا السير على منهج عيسى لكان لهم مع العهد القديم سياسة أخرى، ولكن لهم مسلك أهدى وأرشد، لكن غلب عليهم أمران معيبان: إثبات التجسد الإلهي، وتجويز السقوط على الأنبياء. ولِمَ فعلوا ذلك؟ ليسهل تصور إله إنسان وإنسان إله، وليسهل قبول قضية القَربان الذبيح فداء لخطايا لم ينج منها أنبياء الله أنفسهم.

وقد كرهوا أشد الكراهية صيحة محمد وهو يقول بأمر الله: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ (الأنعام: ١٦٤).

إنني لا أتبع محمدًا لأنني وازنت بينه وبين المنتمين إلى السماء والمحدِّثين عن اللّه فوجدت كفته أرجح، إن ذلك يكفي لاتباعه لو كنت ممن يوازن بين المرويات، ويؤثر جانبًا نزيها على جانب متهم!.

الأمر عندي أن الإيمان مصدره الأول العقل اليقظان النقَّاد الباحث عن الحق، فإذا وجده تشبث به إلى آخر رمق.

وقد عرفت اللّه وامتلأ فؤادي بأنه عظيم لأني فكرت وفكرت ثم وجدت أن اللّه الذي آمنت به لا تتوفر الأوصاف الواجبة له إلا في كتاب محمد.

القرآن هو الكتاب الفذ الذي لا يعرف غيره عصر العلم، ومحمد هو الإنسان الذي تتجسد فيه أشواق البشر إلى التسامي والروحانية والارتباط باللّه. وذاك سر بقاء الإسلام إلى يوم الناس هذا، وسر خلوده إلى يوم يبعثون! مع أن الظروف التاريخية التي اكتنفته تشبه العواصف التي تعرقل سير السفينة!.

وعندما أرمق الماضي أجد الإسلام خلال سنيه العشرين الأولى أَجْهَزَ على الوثنية العربية التي قاومته أشرس مقاومة، ثم أجهز على المستعمرات اليهودية في الحجاز، وقلم أظافر اليهود عسكريًّا، وقبلهم في دولته أفرادًا لا يقدرون على كيد!.

أما الصليبية فإن مقاومتها للإسلام ظلت متقدة النار خلال القرون التي عاشها منذ ظهر إلى الآن!! أربعة عشر قرنًا، والخصام لا تفتر حدَّته ولا تنتقص شدَّته..

أخذ هذا القتال عنوان الحرب مع الروم، ثم أخذ عنوان الحروب الصليبية، ثم أخذ عنوان الحروب بين الأتراك وأوربا، ثم أخذ عنوان الاستعمار العالمي، واختفت العناوين وبقيت الحقائق في الكشوف الجغرافية، التي قادتها المصادفات إلى الأميركتين من ناحية، وقادت إلى الهند وشرق آسيا عن طريق رأس الرجاء الصالح من ناحية أخرى.

ثم جاء العصر الأخير ومعه الغزو الثقافي، والتيارات الدولية المختلفة، والتفاف الكنيسة حول الإسلام تريد أن توجه إليه الضربة القاتلة.

أربعة عشر قرنًا تساقطت من حولنا نِحَل شتى، وبقيت الصليبية وحدها تحاول إخماد أنفاسنا! والدول الاستعمارية هي التي صنعت ولا تزال تصنع إسرائيل. إن الجُحْر الذي نُلدغ منه لم يتغير، والعدو الذي قاتلنا في مؤتة هو هو الذي يقاتلنا الآن، وقد أمسى لا يخفي ضغائنه ولا أغراضه استهانةً بنا..!!

عندما زار بابا روما «ساحل العاج» سألت نفسي: ترى ما الغرض والوضع هناك معروف، المسلمون من ناحية الإحصاء ضِعْف النصارى، لكن واللغة العربية تموت أمام زحف الفرنسية، والقوى المادية والأدبية حكر على أعداء الإسلام! إن الأيام مُدْبِرَة عن المسلمين إدبارًا يقبض الصدور، بل هم غرباء في أرضهم!.

وعرفت أن الأحفال الفخمة أقيمت لمناسبة افتتاح كنيسة في العاصمة تعد من أعظم كنائس إفريقية.. قلت: هل يزور المسلمين المستوحشين أحدُهم ليخطبهم في مسجد جامع؟ لا.. هل هم منسيّون؟ لا.. إنهم محاصرون، مَنْ حاول زيارتهم مُنِع، أما في بلده وإما في بلدهم؛ لأن أوضاع العامة توجب ذلك!.

ودرست أحوال المسلمين في فرنسا وإنجلترا ودول أوربية أخرى! إن ملايين كثيرة هناك تنتقص من أطرافها ومن صميمها، والمسلمون يفرحون فرحًا أبله بالجماعات القليلة التي تدخل في الإسلام هناك، وينسون من يُختطف أو يُسرق أو يتلاشى في تيار المادية الجارفة..

ومن أيام التقيت – وأنا خارج من جامعة الأمير عبد القادر- بشاب جزائري يشكو لي أن أخته قد تزوجها فرنسي يزعم أنه ترك النصرانية، فقلت له: قد يكون صادقا.. قال: إنه يعتنق ديانة أخرى أعرفها، لعلها

«شهود يهوه» وأنا قلق على دين أختي! وأدركت المأساة، إن آلاف المسلمين متروكون دون حارس لتتخطفهم الأوهام، أو لتغرقهم الحضارة المادية في عبابها الموار فلا يظهر لهم أثر.

وفي أوربا عشرة ملايين مسلم تقريبا، ذهبوا إما فرارًا من أوطان تنكرت لهم، أو طلبًا للرزق، أو هم أوربيون أصلاء في ديارهم لوت أعناقهم الشيوعية – كما حدث في ألبانيا مثلا – والغريب أن أواصرهم تقطعت بني دينهم، ولولا بعثات قليلة ترسلها حكومة الجزائر إلى أبنائها في فرنسا لقلت: إن المسلمين هناك قد نسيتهم الأمة الكبرى في الشرق.

إن حملات صليبية ماكرة تعمل دونما ضجة لتذويب المسلمين في الأراضي التي هاجروا إليها وقد أدركَتْ حظًّا من نجاح، وهذه الحملات تتمم ما تصنعه البعثات التبشيرية في إفريقية وآسيا، والتي سيطرت على التعليم والإذاعة، وتكاد تصبغ البلاد بالصبغة المسيحية..

والغريب أن جماهير العرب والمسلمين مذهولة عما يراد لها، أو مشغولة بقضايا افتُعِلت افتعالا، ومن هنا فالمستقبل محفوف بأخطار رهيبة، فهل نصحو قبل فوات الأوان؟

قال لي صديق لم يرقْهُ تفكيري: لقد فاتك شيء ما كان ينبغي أن يفوتك! قلت: ما هو؟ قال: إن عاطفة التدين في هذا العصر وحقيقته ليستا محل القبول والرضا، والعالم الآن يقترب من خمسة مليارات، ثلاثة أخماسهم بين شيوعي أو وثني، ومن يدري؟ فقد تقع كارثة أخرى تعصف ببقايا المؤمنين، على اختلاف ما يدينون من دين! والأفضل أن نداوي الإحن التي خلَّفتها القرون، ونصلح ذات البين ونتعاون على إقصاء الإلحاد، ورد الإنسانية إلى ربها..!

فكرت غير قليل، ثم قلت: لا بأس، إنني أبسط يدي لصلح لا غشَّ فيه، والعدل يسع جهات النظر المختلفة، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿... وَقُلْ

ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥ ﴾ (الشورى: ١٥).

أيها الصديق، لكي يكون الحوار بين الأديان سليمًا لا تقل للعربي الطريد من داره: اعترف أولا بإسرائيل ثم تعالَ نصطلح! علامَ نصطلح إذا كنت لا تعترف بوجودي ولا بحقوقي؟.

إن تعليمات عامة صدرت من جهات لا نحب تسميتها تقول لكل قلة دينية في الشرق العربي: سوِّدي الكثرة، وأخضعيها سياسيًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا إن أمكن، وموقف الموازنة في لبنان نموذج لهذا التحدي المعيب.. وهو مثال عملي للطوائف الأخرى يجب أن تقلده فكيف، يقع صلح على أساس هذا التفاوت.

إن المسلمين في جنوب السودان يساوون في العدد من استطاع التبشير إدخالهم في المسيحية، والمراد الآن أن تكون الحكومة في الجنوب مسيحية! ويجب إهدار نظرائهم المسلمين وإهالة التراب على حقوقهم! فكيف يتم صلح على هذا الأساس الجائر؟.

إنه لا بأس بحوار بين الأديان، بل ذلك ميداننا المفضل! إن الفرار من المنطق الهادئ والجدال الحسن هزيمة نأباها على أنفسنا. بيد أننا بداهة لا نقبل الدنيَّة، ولا نسمع لمن يطلب منا أن نسلمه أرضنا وزمامنا وحاضرنا ومستقبلنا، والاستعمار العالمي يريد ذلك بصفاقة..

في أوربا وأمريكا نشعر بأن لهم شرفًا، وأنهم على درجة من سلامة الفطرة وإصابة الحكم، وحبذا لو تلاقينا طويلا مع هؤلاء في مؤتمرات علنية أو سرية، وتدارسنا كل شيء في جو من الصراحة والمودة.

يا صديقي، أنا أعرف أن ظروف المسلمين رديئة، وأنهم مُنُوا بهزائم

موجعة، على أني أدرك سر هاتيك الهزائم كلها، إنها من عند أنفسهم ولو شاءوا لصاروا إلى حال أفضل، ومكانة أعز، ثم هناك شيء آخر أريد أن أفيض فيه؛ إن الإيمان نصفان: نصف عقل، ونصف نقل، وقد يُعْذر من لم يبلغه النقل، أما من جحد عقله وسفه فلا عذر له!.

قال لي صديق: ماذا تعني؟ قلت له: سبق أن شرحت أني أعرف ربي بعقلي، إن قلبي ينبض بانتظام بين جوانحي، من يحركه؟ أنا؟ أنت؟ ما يحركه إلا الله!.

إن الأولاد يتكونون في بطون أمهاتهم على نحو رائع، من يصنع المخ والحواس وسائر الأجهزة والأعضاء؟ المرأة؟ الرجل؟ مَنْ إلا الله؟ إن إنكار الإلوهية لون من البهيمية، وما أرى الإلحاد إلا عمى جديرًا بالاحتقار كله..

فإذا عرفت الله بعقلي فإني لا أعرف كيف أصلي له، وكيف أقوم بحقه، إلا عن طريق نقلٍ من صادقٍ معصوم.. والوحي الصحيح يؤكد المعقولات ويستحيل أن يصادمها، ثم ينشئ عبادات تستريح إليها الفطرة وتتعامل بها مع الله ومع الناس فلا تضل ولا تشقى.

عندما حضرت الوفاة الأديب الفرنسي «فيكتور هيجو» جاءه القس ليشهد ساعته الأخيرة –أو ليغفر له حسب الشعائر الدينية عندهم– وأبى الأديب الكبير أن يستقبله، قائلا: لا حاجة لي بك،إنني أؤمن بالله وقد تصدقت بمالي.

لقد هزتني هذه القصة، وشعرت أن هذا الأديب الكبير أقرب إلى الله من كثيرين، لقد آمن بعقله، ولم يجئه نقل صحيح يستريح إليه وهو أولى بالله من رجل الدين الذي جاءه.

وفي أرجاء الدنيا كثيرون من هذا الطراز، أقروا المعقول ورفضوا المنقول، ولهم عذرهم، وقد تحرك هؤلاء في ميادين العلوم الكونية والحيوية والإنسانية، وكانت أيديهم الطولى في صنع التقدم الحضاري الذي نشهده..

وتاريخ الغرب بعد عصر النهضة يحكي الصراع الدموي الذي دار بين الدين والعلم، والدين والحكم والدين والاقتصاد... إلخ، والدين المشتبك في هذا الخصام ليس الإسلام بداهة، فأين كان الإسلام؟ وكيف غاب عن هذه الفوْرة الخطيرة؟

أكره أن أدافع بالباطل عن قومي! إن قومي خذلوا دينهم، وناموا عن مطالبه، وغلبتهم شهوات نفسية وبدنية وغفلات عقلية واجتماعية، فحقت عليهم كلمة الله، ودفعوا ثمنًا غاليًا لانسحابهم من ميادين الحياة الصحيحة.

لقد كان هذا الثمن غزوًا عسكريًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا، أقبل فيه الغرب المتفوق، ومن ورائه الصليبية التي اصطلحت معه على أن تقوم بخدمته، ويقوم هو بتركها تؤدي دورها القديم.

وكان أن ماجت بلاد الإسلام في فوضى لا ينقشع لها غيم إلا حل محله غيم أشد سوادًا وأملأ بالشرور.

والمدنية الحديثة نشأت من نشاط أرضي ولم تنبعث عن وحي سماوي! من أجل ذلك كانت الأنانية الطابع الأول لحملتها، وكان نسيان الله وجحد لقائه أمرًا مألوفًا فيها، ورخصت الدماء وأهين الضعفاء، وكثر السكَارى، وشاعت عبادة الجسد، وانتشرت الأمراض الجسمية والنفسية.

والعالم الآن يتربص بعضه بالبعض الآخر، ويخشى أن ينتحر في أي لحظة بما يملك من أسلحة الدمار الشامل! إنه فقير إلى رحمة الله وحنانه، وأمام أهل الإيمان وأصحاب الوحي الأعلى مجال ممهود لعمل مثمر إذا شاءوا.

ونحن المسلمون نقدر على إسداء خير لأنفسنا وللناس، ونعتقد أن لدينا الكثير فهل يسمح لنا بذلك؟ أم لا بد من اعتبارنا مأكلة الأقوياء؟ واعتبار ما لدينا جملة أكاذيب؟

أنا مستعد لأن أصحب أي قسيس لأي عاصمة كبرى، ويمنح كلانا ساعة واحدة في أنديته الكبرى نتحدث فيها عن الله الواحد، عن المرسلين، عن الإنسان، عن المال، عن الشورى، عن العدالة الاجتماعية، عن الأسرة، عن الآخرة، عن أي شيء يطرح علينا من حقائق الدين، وليكن الحديث على شكل ندوة، أو على التعاقب، ويمنع فيه منعا صارما أي تهجم أو عدوان.. ولمن شاء أن يتبعني طائعًا غير مكره، ولمن شاء أن يتبع صاحبي..

ويمكن أن تعقد مؤتمرات خاصة على أي مستوى يرضاه رجال الكهنوت المسيحي لنتدارس فيها القضايا التي تطرح. على أن هذا كله لا جدوى منه إذا بقي أولئك الرجال يتوارثون إحنَ القرون، ويطوون أفئدتهم على بغضاء لا قرارَ لها نحو الإسلام وأمته.

في هذه الأيام يتنفس الحقد القديم ضد أي دولة ترغب في إعادة التشريع الإسلامي، ومن قبل ذلك حوربت اللغة العربية بأسلوب ينتهي لا محالة بإبادتها، ومن بضع سنين عرف المسيحيون بغتة أن اليهود أبرياء من دم المسيح، وأنه لا يجوز أن يلعنهم المصلون في الكنائس! ما هذا الود الطارئ؟

إن كل ما في العالم من شرور يمكن أن يعالج بكلمة (الله محبة) إلا الإسلام، فيجب أن يعالج بأن الله كراهية!!

علي أية حال نحن نعرف أن كهنة الصليبية العالمية راغبون عن الوقوف في وجه مباذل المدنية الحديثة ومظالمها؛ لأنهم يشعرون بأن لها في أعناقهم دينًا، فقد تناسلت تاريخيًّا وعفت عن كثير، ولم تنبش قبور العلماء والعباقرة الذين قتلتهم محاكم التفتيش.. ثم هي الآن تمكنهم من ضرب الإسلام، وهذا التمكين يغفر للمدنية الحديثة كل شيء ولو أهلكت الحرث والنسل.

وفَّتِ الكنائس المسيحية بعهدها لليهود ألا تمسهم بسوء، وألا تؤلِّب عليهم أحدًا وظهر ذلك جليًّا في أحفال عيد الميلاد ورأس السنة.. ولم يحدث إلا

لغط حول الإرهاب العربي لليهود وعداء اللاجئين المطرودين من قراهم ومدنهم للسلطات التي أكرهتهم على الخروج من ديارهم..

وشيء آخر سمعته والهموم تهاجمني، لَمِّز للجهاد الإسلامي، وللرسالة التي قامت على سفك الدماء. قلت في نفسي: ألا يظفر العرب بالسماحة والمحبة اللتين ظفر بهما اليهود في هذه الأيام النحسات؟ هل كانت إساءات المسلمين للمسيح وأمه أشد من إساءات اليهود؟

ورجعت للتاريخ فوجدت العجب، لقد ألقى الرومان القبض على أحد اللصوص، وعلى المسيح عيسى ابن مريم بدسائس يهودية.. وكان من المصادفات أن يحل عيد روماني يمكن فيه العفو عن المجرمين، ورأى اليهود أن يعفى عن اللص ويؤاخذ المسيح بتهمته..

وهاك القصة كما رواها متى في إنجيله: «قال لهم بيلاطس: فماذا أفعل بيسوع الذي يدعى المسيح. قال له الجميع: ليصلب. فقال الوالي: وأي شر عمل؟ فكانوا يزدادون صراخًا قائلين: ليصلب. فلما رأي بيلاطس أنه لا ينفع شيئًا بل بالحرى يحدثُ شغب، أخذ ماءً وغسل يديه قدام الجميع قائلا: إني بريء من دم هذا البار. أبصروا أنتم، فأجاب جميع الشعب وقالوا: دمه علينا وعلى أولادنا، حينئذ أطلق لهم باراباس اللص المقبوض عليه، وأما يسوع فجلده وأسلمه للصلب» (متَّى ٢٧: ٢٢-٢٦).

وفي التلمود تجنٍّ سافر على المسيح عليه السلام، فهو متهم بولادة غير شرعية، وأمه الصديقة هدف سهام يهودية مسمومة، والمسيح خارج عن الإيمان، ومحروم من رضا الله، وخاطئ، ويدفع الشعوب إلى الخطيئة، وسرق اسم «يهوه» المبارك وادَّعاه لنفسه، فعقابُه جهنم وبأس المصير.

وبلغ من جرأة اليهود أن عالِمًا من كبار علمائهم في العصر الحديث وهو «لوب» نشر في مجلة «الدروس اليهودية» ما يؤيد شتيمة المسيح واتهامه،وهذا نصه: «أي عجب أن يتضمن التلمود بعض المذمات في حق يسوع؟ إنما

الغريب أن يكون الأمر على نقيض ذلك، وإن كان لأمر من عجب فلنعجب من أن التلمود لم يذكر من المذمات أكثر مما ذكر».

وما ورد في التلمود عن المسيح: «يسوع الناصري في لجج الجحيم بين العار والنار، وحملته أمه من «باندرا» العسكري سفاحًا، والكنائس المسيحية قاذورات، وأساقفتها كلاب نابحة، وقتل المسيحي فريضة على اليهودي، والعهد مع المسيحي ليس عهدًا مُلْزِمًا يجب الوفاء به، وفرض على اليهودي لعن رؤساء المسيحية».

فهل فعلنا نحن شيئًا من ذلك؟ وهل ذكرنا المسيح وأمه إلا بكل شرف؟ ماذا نقول؟!!.



حملة صليبية على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم

تدارست مع أحد الإخوة ما نشره المعهد البابوي عن الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، وشعرت بأن قدرًا كبيرًا من التحريف والمغالطة تخلل الكتابات المنشورة في هذا الموضوع المهم.

إنه يسرنا أن يقرأ القوم ما لدينا، وأن يتناولوه بالنقد العلمي، ولهم الحق في إبداء وجهة نظرهم المخالفة، وما نشكو أبدًا من هذا المسلك. لكن مجلة الدراسات العربية والإسلامية الصادرة في سنة ١٩٨٥م في أعداها ٦٦، ٦٨، ٦٩ تنكبت هذا المنهج واتخذت طريقًا آخر يخدم الحملة على الإسلام، ويحقق سياسة الفاتيكان في النيل منه، وتعكير مستقبله.. وقد كان الأسلوب ناعمًا ماكرًا، ولكنه يحمل في طياته ما سوف نراه..

ترى المجلة أن الحديث عن الإعجاز العلمي للقرآن بدعة اختلقها دكتور «موريس بوكاي»، وأن المسلمين أعجبتهم هذه البدعة المساعدة فطاروا بها هنا وهناك..

وهذا كلام باطل فما كتبه « موريس بوكاي» أواخر السبعينيات من هذا القرن لم يأتِ بجديد يفاجئنا بروعته، بل أكد ما كان معروفًا لدينا، والحديث عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم كان شائعًا قبل ذلك بنصف قرن. وقد كان الأستاذ محمد أحمد الغمراوي سنة ١٩٣٧م يدرس كتابه «سنن الله الكونية» في السنة الأولى من كلية أصول الدين بالقاهرة، وما أدرى أكان «موريس بوكاي» ولد أم لا؟ فكيف يقال إنه صاحب «مودة» الإعجاز العلمي؟

وقد اعتمدت على كتاب الغمراوي وأنا أتحدث عن الإعجاز العلمي في كتابي «نظرات في القرآن الكريم» المؤلف من ثلث قرن تقريبًا، وحديث العلماء عن هذا اللون من الإعجاز مأنوس مدروس في كتبنا من زمان بعيد..

وتمضي المجلة في وهمها عن دور «موريس بوكاي» في الإعجاز العلمي فتعرض ما كتبه الأستاذ أحمد حنفي عن التفسير العلمي للآيات الكونية، وكأنه فيما كتب قد تأثر بـ«بوكاي»، وأنا موقن بأن المحرر يعرف أن كتاب

أحمد حنفي صدر أواخر الخمسينيات، وأنه لم يرَ بوكاي ولم يقرأ له، فكيف يتأثر السابق بعشرين سنة باللاحق المتأخر الذي جاء بعده، لكن هذا اللبس مقصود للأسف، ولا يعتذر عنه بأن الطبعة الثانية لكتاب أحمد الحنفي صدرت سنة ١٩٨٠م، فإن الطبعة السابقة كانت سنة ١٩٦٠م، وقد تحدث المؤلف عن آرائه في دروس ومحاضرات كثيرة قبل ذلك، والعلاقة بينه وبين «موريس بوكاي» مقطوعة!.

ويوهم المحرر جمهور القراء بأن الإعجاز العلمي - الذي أرخ له على نحو ما رأيت- قد تعرض به بالتزييف والرفض كاتب عظيم هو الدكتور كامل حسين، وأن له مقالا منشورًا سنة ١٩٨٣ فند فيه هذا الإعجاز وأبطله. والدكتور كامل حسين مات من عشر سنين، والمقال المنسوب إليه نشر سنة ١٩٦١م، وهو مقال نعرف قيمته عندما نعرف كاتبه..

كامل حسين طبيب بشري كرس حياته في دراسة المذاهب الباطنية من قرامطة ونصيرية وإسماعيلية... إلخ، ثم ألف قصة عنوانها «قرية ظالمة» تعتبر من الأدب التبشيري الحديث! ومات الرجل والكنيسة راضية عنه.

أما مقاله عن الإعجاز العلمي الذي حظي بالثناء المستطاب، فهو مقال محشو بالسباب، وليست له قيمة علمية، وقد أضفت المجلة البابوبة نعوتاً طيبة على الطبيب المريب، وهو كما ذكرنا.

إننا سنتحدث عن نماذج للتفسير العلمي أدق وأصدق مما اختار محرر مجلة الدراسات العربية الإسلامية التي تصدر بروما، ولكن قبل هذا الحديث نشجب التدليس العلمي الذي ظهر جليًّا فيما ساقه المحرر من تواريخ للأشخاص والبحوث. ويظهر أن اللعب بالتواريخ عادة قديمة عند القوم نذكر نموذجًا لها بعيد الأثر في تعمية الحقائق وتضليل الجماهير..

عندما انهزم الرومان قديمًا أمام الفرس كانت هزيمتهم من الشدة والخزي بحيث قدر العالم أن الرومان لن تقوم لهم قائمة بعدها.. لقد

فقدوا مستعمراتهم في الشرق الأوسط كلها، وأرغموا على دفع غرامات فادحة من أموالهم ونسائهم، وهذا ذل ما وراءه ذل.. بيد أن صوتًا فذًّا في أعماق الجزيرة العربية كذب الظنون كلها وباغت الناس بخبر مثير هو أن الروم سوف ينتصرون في بضع سنين! ولم يكن هناك ما يدفع إلى تصديق هذه النبوءة العجيبة.. وانتصر الروم في الأمد الذي حددته النبوءة، وانهزم الفرس انهزامًا سلبهم ما أخذوا وكاد يفقدهم أنفسهم.

وكان على نصارى العالم أن يستمعوا إلى هذا النبي أو يدرسوا سيرته أو يؤمن بعضهم على الأقل برسالته!! لكن شيئًا من ذلك لم يحدث، فقد قال لهم المؤرخ الروماني جيرون: إن سبب هذه النبوءة هو حقد محمد على كسرى بعد أن مزق له رسالة يدعوه فيها إلى الإسلام!.

والرسالة التي يذكرها المؤرخ الكذوب أرسلت إلى كسرى بعد هذه النبوءة ببضعة عشر عاما! النبوءة كانت في العهد المكي، والرسالة الداعية إلى الإسلام كانت في المدينة قبل وفاة الرسول بثلاث سنوات تقريبا. اللهم إلا إذا كان المؤرخ الروماني يسرد الوقائع على نحو ما قال الشاعر العربي المخمور:

أسكر بالأمس إن عزمت على   الشرب غدا إنّ ذا من العجب

وندع موضوع اللعب بالتواريخ إلى قضية الإعجاز العلمي نفسه، فهذا الإعجاز لا يبدأ من فراغ، إنه يبدأ من حقيقة لا يليق تجاهلها بباحث مخلص.

لقد شعر القارئون للكتب القليلة المنتسبة إلى السماء أن القرآن يمتاز بخاصة لا تعرف لغيره؛ هي حديثه المستفيض عن الكون وحثه القوي على النظر فيه، ووصفه المتكرر لآفاقه، واستخلاصه عظمة الخالق من عظمة المخلوق.

وإنك لتستثار طوعًا وكرهًا، وتنتقل من بناء الكون إلى بانيه البديع

عندما تقرأ:

- ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ﴾ (الفُرْقَان: ٤٥).

- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ (فَاطِر: ٢٧)..

- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ .. ﴾ (الزُّمَر: ٢١).

هذه الآيات ومئات غيرها وصفت الملكوت وصفًا دقيقًا لا تجد في أسواره ثغرة، وقد وَثَب العلم في عصرنا وثبات رحبةً، وعرف من أسرار العالم ما لم يعرف الأوائل، واستمع إلى آيات القرآن وهي تصف الكون والحياة فوجد تطابقًا أو تقاربًا يقطع بأن مصدر هذا الكلام هو خالق العالم نفسه: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾ (الفُرْقَان: ٦).

وماذا يقول علم الأجنة في وصف القرآن لأطوار الجنين في نشأته الأولى ومتابعته المذهلة لمراحل تخلقه؟

لم يكن هناك تصوير بالأشعة يستكشف هذه الخبايا داخل جدار الرحم، لم يكن هناك علم تشريح يعرض مرئياته وتجاربه على الناس بهذه القدرة الصادقة!! أنى لمحمد هذا العلم؟ إن أرقى الحضارات عند بعثته كان يجهل هذه الشئون، فكيف بحضارة بدائية تملأ أكناف الجزيرة العربية، وتجعل الوثنية دينها الأثير؟!

لا أحب أن يستحمق أحد فيقول: إن القرآن كتاب طب أو فلك، ليس يزعم ذلك عاقل، إنه كتاب يهدي إلى الله بأسلوب يربط بين عقل الإنسان

وعجائب الكون، مع إرشاد إلهي يكمل قصوره، ويضبط مسيره.. وسنعلم أن هذا الإعجاز العلمي قد اختص به القرآن الكريم وحده، وأن غيره مستبعد ابتداء لأسباب مادية وأدبية.

وقبل أن نشرح ذلك نريد تبيان أن علماء المسلمين لم تملكهم عاطفة جامحة وهم يتابعون هذا الإعجاز، لقد نظروا إلى «دلالات» الكلام وفق مقررات علم أصول الفقه وهو فلسفة الإسلام في استنباط الأحكام من مصادرها، فأجازوا ما أجازوا ورفضوا ما رفضوا..

سمعت قائلا يذكر من إعجاز القرآن هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ۝٥﴾ (الأَعْلَى: ٤، ٥).. يقول: الآية تشير إلى الأصل النباتي للنفط، وهو ما يقرره العلماء الآن. قلت: دلالة الآية على ما تحكي بعيدة، ولا أستطيع تفسيرها على هذا النحو!

وسمعت آخر يقول: لقد سبق القرآن إلى اعتبار الرجل هو المسئول عن نوع ولده أذكر هو أم أنثى؟ وذلك آخر ما وصل إليه العلم من كشوف، وساق من القرآن الكريم هاتين الآيتين: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ﴾ (النَّجم: ٤٥، ٤٦)، وكذلك قوله تبارك اسمه: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣٩﴾ (القِيامَة: ٣٧-٣٩).

وتدبرت الآيات في الموضعين، وشعرت بأن الدلالات واضحة وقريبة على أن ذكورة الولد أو أنوثته تجيء من ماء الرجل لا من البويضة التي تتكون في الرحم، قلت: نعم هذا حق.

وعلى أية حال، فإن النظريات العلمية لا تُفَسَّر بها الآيات القرآنية، وذلك ما رآه علماؤنا، فإن النظريات قابلة للتغير، ولا نعرض القرآن لظنون رجراجة. أما الحقائق العلمية، فإنها إذا

وافقت كتابنا كانت تفسيرًا حسنًا له، بل كانت تفسيرًا عمليًّا لقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فُصِّلَت : ٥٣).

قال لي بعض الكتَّاب: إن الباحثين في الفضاء يتعرفون هل الكواكب التي يرصدونها بها ماء أو لا، فإن وجد بها الماء كان ذلك مظنة الحياة على سطحها، أليس ذلك مصداق قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الأَنْبِيَاء: ٣٠)؟

قلت: إن الحياة البشرية وغير البشرية على سطح الأرض معتمدة على الماء يقينًا، والآية لا ريب فيها. وقد تكون هناك حيوات أخرى لأجناس أخرى لا علاقة لها بالماء.. إننا نحن المسلمين نتبع اليقين، ونأبى الظنون والتخمين، والإعجاز العلمي له رجاله الراسخون. وأمثل من قرأت لهم الدكتور محمد أحمد الغمراوي طيب الله ثراه، والدكتور موريس بوكاي زاده الله هدى وتوفيقًا..

والآن يجيء الكلام عن الكتب الأخرى التي تنسب إلى السماء ونتساءل: هل وصف أهل دين ما عدا المسلمين كتابهم بأنه معجز؟ إن التحدي لم يقع إلا بالقرآن وحده: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (الإِسْرَاء: ٨٨)، أما الكتب الأخرى فلم تنسب إلى نفسها إعجازًا علميًّا ولا بلاغيًا ولا نفسيًّا، وعرضت ما بها وكفى.

وشيء آخر نتحدث عنه مصارحين: إن الوحي الإلهي المتجسد في القرآن الكريم ليست به شائبة من صنع البشر، لكن الأمر الذي استقر عليه القوم في آخر تعاريفهم للوحي أنه إلهام من الروح القدس لا تنفك عنه الخصائص الإنسانية عند مَنْ يتلقاه!.

هل يعني ذلك أن كلمات الكتاب المقدس تشبه أقوال الأنبياء؟ كنت أتمنى ذلك! الذي يبدو لي أن واضعي التعريف الأخير أرادوا به تجاوز ما استحال عقلا أن ينسب إلى وحي سماوي في إصحاحات كثيرة.. أقول: بل ما يستحيل أن ينسب إلى رجال صالحين!!.

من أجل ذلك توقفت وأنا أقرأ مجلة الدراسات العربية التي يصدرها المعهد الباباوي وهى تعلق على التفسير العلمي للقرآن الكريم قائلة: «إن هذا التفسير الذي ظهر بين المسلمين هو محاكاة للمحاولة المسيحية التوفيقية بين التوراة والعلم التي وقعت في القرن التاسع عشر...».

وهذه جراءة لا نتركها تمر، فليست بين القرآن والعلم فجوة نحاول ردمها، ولا مسافة نبغي تقريبها أو محوها، إنما الفجوة العميقة والمسافة الشاسعة هي بين العلم، وبين التراث الديني الذي تركه كاتبو العهد القديم، ويستحيل عقلا ونقلا أن تنجح أية محاولة للتوفيق بين الطرفين، إن الخلاف بينهما علمي وعقائدي وأخلاقي وتاريخي!!

وأكاد أجزم بأن مؤلفي هذا الكتاب جمعت بينهم نية مشتركة في تلطيخ سيرة الأنبياء، ونسبة المناكر إليهم، وإبراز حقيقة الدين -بعد سقوط قادته- كالحة رديئة..

إننا نحن المسلمين نأبى كل الإباء وصف إسرائيل بأنه نصاب مخادع احتال على سرقة النبوة، وهي حق أخيه «عيصو» كما يقولون، ومثل أمام أبيه الأعمى «إسحاق» أنه «عيصو» نفسه، ولبس إهاب ضأن ليبدو كثير الشعر كأخيه، وقلد صوته... إلخ.

هل النبوة منصب يسرق، وهل رسل الله لصوص يسلبون الآخرين حقهم؟ ماذا تكون حقيقة الدين بعد ذلك؟ وماذا ينتظر من أتباعه إلا أن يكونوا خطّافين؟ وكيف يتصور الناس الإلوهية في هذا الجو؟

إن الصورة المثلى للإلوهية، كما ذكرها أحد كتاب العهد القديم أن يحكي للأجيال قصة طريفة: كان إبراهيم جالسًا تحت أشجار البلوط في «ممرا»، فنظر بعيدا فوجد الله قادمًا يمشي مع بعض الملائكة! فهرع إليه وسجد بين يديه، وقال له: إن كان عبدك يجد نعمة لديك فتعالَ وتناول الغداء معه..!!! وقَبِل الرب الضيافة، وشارك في أكل عجل ذبحه له إبراهيم الخليل!! إنها إلوهية عجيبة تلك التي جسدها لنا أحد كتاب العهد القديم!!.

والتفسير العلمي للتوراة في القرن التاسع عشر حاول أن يوفق بين الدين والعلم وهو يواجه هذه الأساطير السقيمة..

والمسلمون عندما يتحدثون عن الإعجاز العلمي للقرآن إنما يقلدون في هذا القرن العشرين ما فعله كهان القرن التاسع عشر في العالم الغربي، ترى ما فعلوا وكيف وفقوا؟.

ولست الآن في مجال استعراض لما نأخذ به الآخرين من تخبط في فهم الإلوهية والنبوة ومعنى الوحي، ومعنى التاريخ... فذاك أمر له ميدان فسيح، إننا فقط ننبه محرر مجلة الفاتيكان أن يكون يقظًا أو حذرًا قبل أن ينال منًّا بالباطل.. إنه يعلم أن مفكري أوربا أحصوا مئات الأغلاط في هذه الكتابات، ورفضوا نسبة قداسة ما إليها..

قداسة؟ قداسة لنصٍّ يقول: إن الله صنع قوس قزح عند نزول الأمطار كي يتذكر، فلا يترك المطر يهطل حتى لا يحدث فيضان آخر، فإنه ندم على الفيضان القديم!. إله ذاهل يحتاج إلى منبِّه؟!

ومن أغرب ما قرأت ما جاء في سفر حزقيال في الفقرة «١٣» حيث يقول الرب لحزقيل: «وتأكل كعكًا من الشعير على الخرء الذي يخرج من الإنسان! تخبزه أمام عيونهم – يعني بني إسرائيل. وقال الرب: هكذا يأكل بنو إسرائيل خبزهم النجس بين الأمم التي أطردهم إليها»[١].

---

١ – الأصل الأمم الذي أطرهم إليهم، وهو خطأ تجاوزناه..!

ترى ما هي محاولات التوفيق بين العلم والتوراة التي بدأت مع القرن التاسع عشر؟ وهل هذه المحاولات التي نقلدها نحن المسلمين، عندما نتحدث عن إعجاز القرآن، ونجعل التفسير العلمي نوعًا من التفاسير الخادمة للوحي الأعلى؟ يؤسفنا أن نقول: إن المحرر لصحيفة الفاتيكان يهزل، ويتحصن وهو يهاجم القرآن وراء نسيج من بيوت العنكبوت..

وكأنما شاءت الأقدار أن تثأر للكتاب الذي افترى عليه المفترون، فإذا نقابة الأطباء في مصر تدعو إلى مؤتمر عالمي لبحث الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، والتقى في القاهرة علماء قَدِموا من نيف وعشرين دولة، وقدم في الموضوع نحو ثلاثمائة بحث!

ورأينا الراسخين في أهم علوم العصر يستمعون في وعي إلى ما يقال، فلما رأوا الصوت الذي انبعث من خمسة عشر قرنًا يتحدث إليهم حديث خبير بأسرار الحياة عليم بقوى الكون والإنسان لانت قلوبهم لذكر الله، فمنهم من ذهب إلى الأزهر يعلن إسلامه، ومنهم من قرر متابعة الدراسة مع إخوانه، وهو مبهور مما أفاد!.

الدكتور «برسو» أستاذ التشريح يقول: إن تحقيقه لبعض الآيات والأحاديث أشعره بأن القرآن وحي الله إلى محمد يقينا، فمن أين أتت هذه المعارف التي صدقتها كشوف العصر الحديث؟.

والدكتور « أليسون» عالم الجيولوجيا يقول: إن القرآن يحتوي على حقائق علمية، عرف العقل البشري بعضها وهو في طريقه إلى معرفة البعض الآخر، إن هذا الكتاب للماضي والحاضر والمستقبل!.

ويقول هذا العالم الجيولوجي: إن بلاد العرب ستتحول إلى مروج وأنهار كما تنبأ النبي بذلك –في بعض حديثه– فإن العصر الجليدي الثاني قد بدأ، وستعود الجزيرة العربية خضراء كما كانت في زمان قديم.

ويتساءل الدكتور «مارشال جونسون»: لماذا لا يكون محمد نبيًّا، ومعه

هذا الكتاب المشحون بالنظرات الصائبة إلى العالم وقواه وأسراره التي تجلت لنا في القرن العشرين؟

نقول: هل أحق منه بالنبوة من نقرأ التراث المنسوب إليهم فلا نجد به إلا محنة العقل والضمير، ودسائس الحقد والجهل؟

ويقول الدكتور « كيث مور»، أستاذ علم التشريح، وأحد الخمسة الأوائل من علماء الأجنة، وله مؤلف مترجم إلى ثماني لغات: إن تصنيفنا لأطوار الجنين لم يعرف إلا أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن، وقد أعطيت مراحل التخلق في بطن الأم أرقامًا وحروفًا أبجدية لا معنى لها، ولكن الدراسات الحديثة المقارنة لعلم الأجنة، والقرآن والسنة أسفرت عن مصطلحات أخصر وأنفع تعتمد على الشكل الذي يمر به الجنين، شكل النطفة والعلقة والمضغة والعظام وكسوة العظام باللحم، ثم طور النشأة الأخيرة! وعرض الدكتور صورًا تبرز هذه الأطوار وفق ما ذكر القرآن الكريم من خمسة عشر قرنا..

نقول: وبحوث اليوم كثيرة، وبحوث الغد أكثر، إنني حسن الظن بالفطرة الإنسانية ما دامت تسترشد بالوحي الأعلى، وتتحرى مرضاة خالقها.

ومصيبة الإنسان في نظري من فريقين: فريق يستعلي على ربه أو يفسق عن أمره، وفريق يزوِّر مرادَه ويفتري عليه..

وفي بعض الأحيان أبحث عن أسباب العوج السائد، فأرى الذين قَدَّمُوا الحق شوَّهوا وجهه وزهَّدوا الناس فيه، وأرى الآخرين هاموا على وجوههم، ما احترموا فطرتهم ولا أنصفوها.. والمدنية الحديثة تتبع هواها، وتأبى بشدة أن تخضع للدين.

ولا يزال الدين جديرًا بالازدراء والنبذ إذا كان رجاله يحاربون التوحيد الإسلامي ويبيتون الويلات له، ويهادنون الإلحاد الأحمر والأصفر، ولا يشتبكون معهما..

ولا يزال الدين أهلا لظنون السوء إذا وجَّهَ جهده بجنون لمحاربة تعدد الزوجات، وصمت صمت القبور عن شيوع الزنا واللواط.

أليس ذلك ما يفعله الفاتيكان الآن، وما يجتهد رجاله الكبار والصغار لتحقيقه؟ منتهزين الهزيمة التي ألَمَّت بالمسلمين في العصر الأخير لبلوغ مآربهم..

لقد انطلق العلم وحده منفردًا بزمام الإنسانية جمعاء، وحقيق به أن ينفرد!. مَنْ يشركه في هذه القيادة أو يستبد بها دونه، ورجال الأديان على ما علمنا؟

على أن المسلمين إذا ارتفعوا إلى مستوى الإسلام أنقذوا أنفسهم وأنقذوا الدنيا معهم. إن العالم اليوم يفكر في الانتحار، وقد يصيبه مس فيقدم على حرب تحصد الأخضر واليابس!.

فهل نصحوا نحن قبل فوات الأوان، ونأخذ على أيدي العابثين بالأديان؟.



الحكم الإسلامي لا ينطلق من فراغ

عندما كان موسى عليه السلام يكافح لتحرير قومه من ظلم الفراعنة واجه متاعب جديرة بالتأمل، وجل هذه المتاعب كان من قومه أنفسهم!

أصدر إليهم الأمر أن يرحلوا من مصر في ليلة موعودة، وأن يستخْفُوا تحت جناح الظلام متجهين شطر البحر الأحمر، واستجاب اليهود للأمر الذي أصدره قائدهم، فلننظر: أكانوا متلهفين للخروج من مصر؟ أكانوا متعشقين للحرية التي فقدوها والأمان الذي حرموه؟ أكانوا كارهين لجو تذبح فيه الأبناء وتُسْتحيى النساء، ويصب فيه البلاء؟

إن هذا ما يتبادر للأذهان، غير أن الواقع غير ذلك، فإن بني إسرائيل كانوا قد ألفوا الدَّنية، واستكانوا للضَّيم على نحو ما قال أبو الطيب:

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلُ الْهَوَانُ عليه   مَا لِجُرْحٍ بميتٍ إيلام!

وقد نبَّه القرآن الكريم إلى موقف الشعب من القائد الذي يبغي تحريره؛ قال تعالى: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (يُونُس: ٨٣).

إن بعض الشباب الحديث السن السليم الفطرة هو الذي اعتنق رسالة موسى، وقرر أن يقاوم معه الجبروت، ومضى مع أحلام المغامرة ينشد مستقبلا أشرف، أما الشيوخ وسواد اليهود فقد قيد مسالكهم الخوف، ولم يتحمسوا لدعوة الحرية! وقد انكشفت خباياهم لما قرَّر فرعون ملاحقة الهاربين من بطشه، وخرج على رأس جيش كبير ليستعيد قوم موسى إلى السجن الذي فروا منه!.

كانت مطاردة مثيرة، اليهود يشتدون نحو الساحل عابرين الصحراء الشرقية، وفرعون وراءهم يريد أن يدركهم.. ويصف الإصحاح الرابع من سفر الخروج هذا الموقف قائلا: « فلما اقترب فرعون رفع بنو إسرائيل

عيونهم، وإذا المصريون رحلوا وراءهم، ففزعوا جدًّا، وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب وقالوا لموسى: هل لأنه ليست قبور في مصر أخذتنا لنموت في البرية؟ ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر؟ أليس هو الكلام الذي كلمناك به في مصر قائلين: كف عنا فنخدم المصريين؛ لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية».

إن هذا الكلام ناضح بالنذالة والجبن واستمراء الدنية، والواقع أن الشعوب التي برحت بها العلل لا يمكن أن تبرأ من سقامها بين عشية وضحاها، إنها تحتاج إلى مراحل متتابعة وسنين متطاولة من العلاج المتأني الصبور حتى تَنْقَه من بلائها. من أجل ذلك قرر المصلحون بعد تجارب مريرة أن الزمن جزء من العلاج..

وقد رأيت بعد تدبير عميق أن الشعب الإسرائيلي أول مرة لم يتبع موسى عن عزة نفس أو صلابة يقين، لعله تبعه عن تجاوب عرقي أو تعصب قبلي، ثم استفاد الأخلاق والإيمان في مراحل متأخرة.. وملاحظة العقل اليهودي، والتاريخ اليهودي تؤكد هذا الاستنتاج.

ونحتفظ بهذه النتيجة الآن لنعرف نهاية المطاردة بين فرعون وموسى! لقد صورها القرآن الكريم في هذه الآيات: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (الشُّعراء: ٦١-٦٦).

إن الله لم يخذل نبيه، بل سانده بقدرته الخارقة، ولم يترك الجبابرة ليستأنفوا فسادهم في الأرض، بل أخمد أنفسهم بضربة ما توقعوها قط.

ونظر بنو إسرائيل فوجدوا أنفسهم سالمين على الشاطئ الآخر، كما

أحسوا أن قتلة الأمس قد طاحوا، فلا عدوان عليهم بعد!!

فبماذا استقبلوا هذه النعماء الغامرة؟ وماذا فعلوا لمسديها الجليل؟ لقد تيقظت في أنفسهم الوثنية، وأعجبتهم عبادة الأصنام! فتقدموا إلى نبيهم في بلادة هائلة ليجعل لهم صنما! قال تعالى: ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

(الأَعْرَاف: ١٣٨-١٤٠).

وأي فضل أعظم ممَّا تمَّ؟ أن يرثوا الأرض، ويغلبوا العدو، ويمنحوا فرصة السيادة، بيد أن شيئًا من ذلك لم يغير خسَّتَهم، إن أثقالهم النفسية حطت بهم في مكان سحيق..

وجاء الاختبار التالي، فإن الله لم يكلف اليهود محاربة فراعنة مصر -ومحاربة الطغاة مطلوبة حيث كانوا- إلا أن الإسرائيليين كانوا أقل وأذل من ذلك، لقد كلفوا بمحاربة الجبابرة الذين يسكنون فلسطين، ووعدوا بأنهم في هذه الحرب سوف ينتصرون..

وجزع اليهود لهذا التكليف، ولم يطمئنهم هذا الوعد؛ إنهم أحرص الناس على حياة، وهيهات أن يعرضوا أنفسهم لخطر! كيف يطلب منهم قتال؟

يقول لي الأمير بغير جرم: تقــدم! حين جَدَّ بِنَا الْمِـرَاس

فما لي إنْ أطعتُك من حياة وما لي بعد هذا الرأس راس!!

جــاء فــي القـــرآن الكـــريم على لســـان مـوسى: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ

مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (المَائِدَة: ٢١، ٢٢).

ووصفت التوراة حال الشعب اليهودي عندما سمع هذا التكليف: «فرفعت كل الجماعة صوتها وصرخت! وبكى الشعب تلك الليلة، وتذمر الشعب على موسى وعلى هارون، وقال لهما: ليتنا متنا في أرض مصر! أو ليتنا متنا في هذا القفر! لماذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف؟

وكان لا بد من قرار إلهي قاطع!!.. إن هذا الشعب يحتاج إلى تربية طويلة الأمد، تكبح جماحه وتقتل رذائله، وتفتح بصيرته على لون آخر من الحياة الرفيعة، والإيمان بالله واليوم الآخر.. فلتكن سيناء مصيدة محكمة الجدران يضطرب داخلها، ويعيش وراء حدودها لا يعرف أحدًا ولا يعرفه أحد، وليبق على تلك الحال أربعين سنة!

أربعين سنة يهلك فيها الذين شاخوا في الفساد، ويتدبَّر أمرَه في سجنها الطويل مَنْ عاشوا لا يفكرون إلا في مآربهم، وستنضج خلالها الذرية التي آمنت بموسى، وتبلغ مرتبة الرجولة التي تتصرف في نفسها وفيما حولها..

أربعين سنة يهلك فيها من كانوا يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، ويخطب فيها بقوة من كانوا يهمسون بالحق فتكمم أفواههم!

إن الأفراد المدمنين للمخدرات يحتاجون إلى مستشفيات تفنى فيها عاداتهم السيئة، وتحيا فيها عادات جديدة تصح بها أجسامهم وأعصابهم، فكيف بأمم تواضعت على تقاليد رديئة وأعراف فاسدة؟ إن هذه الأمم محتاجة إلى جو جديد تتنفس فيه هواء أنقى، وتسمع فيه إلى دعاة الحق وهم يهدونها سواء السبيل..

وقد طالت المدة على بني إسرائيل في سيناء! مات في هذه الفترة موسى وهارون، وتركا وراءهما شعبًا يتولى القدر تأديبه، ويتدرج بشتى الوسائل على رفع مستواه.. ولم يكن من هذا بُدٌّ، إن الأمم لا تترك السفوح إلى القمم بكلمة عابرة من واعظ مخلص، أو مدرس بصير، الزمن جزء من العلاج.

استوقفني في هذا المعنى فكاهة ذات مغزى: قيل إن ثعلبًا جائعًا انطلق يبحث عن طعام، فرأى من سرداب طويل إناءً مشحونًا بما لذَّ وطاب، فوثب داخل السرداب الضيق وتلطف حتى بلغ الإناء، ثم أخذ يكرع منه حتى امتلأ، وحاول العودة من حيث جاء فعجز، لأن بدنه انتفخ فما يستطيع التقهقر! ولقيه في محبسه هذا ثعلب عجوز عرف القصة من بدايتها، فقال للثعلب الصغير: ابق في مكانك هذا حتى تجوع وتعطش وتخف وتنحف، وعندئذ تقدر على الخروج!

قلت ضاحكا: الزمن جزء من العلاج..

لكن ما تكون عليه حال الدنيا خلال هذا الزمن المفروض؟ إن الجبارين الذين أمر بنو إسرائيل بمقاتلتهم سيبقون مفسدين في الأرض ينشرون في أرجائها الكفر والذل، سيبقون كذلك عشرات السنين! فكيف ترضى الأقدار بهذا العوج؟

وأجيب: لا بد من وارث شريف للحضارة المعتلة! وإذا كان حملة الوحي الإلهي ليسوا أهلا لهذه الوراثة فهيهات أن يقودوا.. سواء حملوا التوراة أو الإنجيل أو القرآن.

وقد تنبأت بأن المدنية الحديثة سوف تبقى عصرًا لا أدري مداه، سوف تبقى مع كفرها باليوم الآخر، ونسيانها الوضيع لله، وظلمها للضعاف والملوَّنين، وتهتُّكِهَا في طلب الشهوات بكل وسيلة!.

لماذا؟ لأن حملة الوحي يفقدون من الناحيتين الفكرية والنفسية مؤهلات القيادة، بل أعرف – أنا عربي أعيش بين العرب – أن لدينا رذائل من نوع آخر لا تقل عن رذائل المعطِّلين والمثلِّثين، ويستحيل معها أن نكون أهلا للصدارة، بل يستحيل معها أن يقع زمام القافلة البشرية في أيدينا..

إن فساد المبتعدين عن الله، الجاهلين بحقوقه سوف يعلل بأنهم لا إيمان لهم.. أما فساد المتدينين فإنه يرتد إلى الدين نفسه بالنقص، ويجر

عليه تهمًا هو منها براء، فحكمة الله واضحة في تأخير المتدينين الجهلة وحرمانهم من السلطة..

والأمة الإسلامية منذ بضعة قرون تتدحرج إلى أدنى، والمصلحون الذين هم شهداء عليها يوم القيامة لا يلقون منها إلا عنتًا، وقد فقدت في أثناء هذا التدحرج أمرين جليلين:

أولهما: الشمائل الإسلامية التي اختصت بها الرسالة الخاتمة..

والآخر: الملكات الإنسانية التي تتمتع بها الشعوب الراقية، والتي تجعلها سبَّاقة في ميادين الحياة المادية والأدبية.

أذكر أنه جاءني يوما أحدُ الدعاة في حال من الغضب الشديد يقول لي: أترى إلى حكومتنا وهى تدعو إلى تحديد النسل؟ يجب أن تنضم إلينا في محاربتها!

قلت له وأنا متثاقل: إن التحديد المقترح لا يحل المشكلة القائمة! إن المشكلة تكمن في عدم وجود الإنسان السوي، والمجتمع الناشط.

قال لي: إن تعاليم الإسلام هي تكثير النسل.. قلت له: نعم، وله تعاليم أخرى في تكبير الشغل! قال: ماذا تعني؟ قلت: لماذا تريد الزواج والنسل الكثير، على أن يقوم غيرك بالإنفاق على زوجك وولدك؟ إنكم لا تعمرون الأرض وتثيرونها كما أثارها غيركم وعمروها.. إنكم لا تستخرجون خيرات الأرض من خباياها وظواهرها كما استخرجها غيركم من أنحاء البر والبحر..

إنكم بدوافع الرغبة الحيوانية تصيحون في طلب الزواج والأولاد، وتطلبون الكثير والكثير، فعلام يدل هذا؟ على أن العقل الإسلامي يعرف رغبته ويسمع صوتها، ولكنه لا يعرف واجبه ولا يلبي نداءه!..

ثم استتليت: لا الشعب يدري، ولا السلطة تدري! ظلمات بعضها فوق

بعض!!.

إن المثال السابق سقته إثر واقع عَرَضَ لي وأنا أكتب الآن، وهو يخدم الفكرة التي أريد إبرازها، وهي أن علل الأمم لا تُدَاوى بالارتجال السريع، والرغبة النزقة.

والشبان الذين يظنون الإسلام يمكن أن يقوم بعد انقلاب عسكري أو ثورة عامة لن يقيموا إسلامًا إذا نجحوا! فإن الدولة المحترمة وليد طبيعي لمجتمع محترم، والحكومة الصالحة نتيجة طبيعية لأمة صالحة! أما حيث تتكون شعوب ماجنة وضيعة فسيتولى الأمر فيها حكام من المعدن نفسه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (الأنعام: ١٢٩).

والاتجاه إلى الجماهير لغرس العقائد وتزكية الأخلاق وإنشاء تقاليد شريفة، وإقامة شواخص ماجدة ترنو إليها البصائر، وإقامة الصلاة جماعة بعد جماعة، أعني وقتا بعد وقت من الفجر إلى العشاء، وتحصين الرجال والنساء ضد الانحراف والانحلال، والتغلغل في الأسواق والميادين والمنظمات والنقابات لإحياء كلمات الله وإنفاذ وصاياه... ذلك كله كان طريق الأنبياء وحوارييهم ومن نَهَجَ نهجهم.

ولم تقع معركتا بدر والفتح إلا بقَدَرٍ أعلى انساقَ إليه المسلمون دون خطة سابقة أو إعداد مبيت..!!

أعرف أن عددًا من الحكومات مرتد عن الإسلام يقينًا، وأنه لن يدخر وسعًا في مقاومة المد الإسلامي وفتنة أهله، وعلاج ذلك يتم بالتزام الخط الذي رسمه الأنبياء، والصبر على لأوَائِه وضرَّائه، فهو -وإن طال المدى- أقصر الطرق إلى الوصول، وأولاها برعاية الله، وأبعدها عن الأطماع والشبهات..

ولا تحسبن هذا الخط أبعد عن المخاطر وأقرب إلى السلامة، إنه صعب التكاليف ثقيل الأعباء، وقد رأيت أعداء الإسلام يرقبون هذا الخط بحذر،

ويرون أصحابة هم الأعداء الحقيقيين لهم..

إن قصة خدمة الإسلام عن طريق الانقلابات والثورات راودت أناسًا لهم إخلاص وليست لهم تجربة، ولم تنجح من سنين طويلة هذه المحاولات.

ورأيي أنها لو نجحت فإلى حين، ثم يبدأ الجهاد الحقيقي لتنظيف الشعوب من أقذائها، وإحداث تغيير جذري في أخلاقها وعاداتها! أي أننا سنرجع إلى الإصلاح الشعبي عن طريق الشعب نفسه لا عن طريق الأوامر الرسمية.

لست أنكر قيمة السلطة في اختصار المسافة، وإقرار المعروف ومحو المنكر، وإني أعلم أن الدولة جزء من الدين، وأن أجهزتها الفعالة جزء من شُعَب الإيمان السبعين..

وكون الحكم من شعائر الإسلام حقيقة لا يماري فيها إلا جاهل أو جاحد.. وهذا كله لا يلغي ولا يوهن عمل الأمة نفسها في تثبيت العقائد والأخلاق والعادات الحسنة، وفي إعلاء سلطان الضمير وتتبع مسارب السلوك الخفية والجلية، وفي فرض رقابة دقيقة على أجهزة الحكم، وإبطال شرعيتها إن هي نسيت وظيفتها أو جاوزت حدودها..

إن الدولة في الإسلام صورة ظاهرة لباطن الأمة، وهي يدها التي تحقق بها ما تبغي، وقدمها التي تسعى بها إلى ما تريد.. بيد أن ضراوة الطباع البشرية السافلة قلبت هذا كله رأسًا على عقب، وأمكنت ناسًا من عبيد ذواتهم أن يفهموا الحكم على نحو آخر، إنهم لم يفهموه عبادة للّه بل سيادة على الآخرين، ولم يفهموه أمانة ثقيلة العبء بل فهموه مغنمًا لذيذ الطعم، وتطاولت هذه الحالة على الأمة المنكوبة فأصابها من الضياع ما أصابها..

كان رسول اللّه ﷺ يعلم أن وضع قريش بين القبائل العربية يجعل الأمور تتدافع إليها، ويجعلها مرشحة أكثر من غيرها لتولي السلطة، فأحب أن يشعرها بما لها وما عليها لترغب وترهب.

روى أحمد في مسنده عن أبي موسى الأشعري قال: «قام رسول الله ﷺ على باب بيت فيه نفر من قريش، وأخذ بعضادتي الباب، فقال: هل في البيت إلا قرشي؟ فقيل: يا رسول الله، غير فلان ابن أختنا، فقال: ابن أخت القوم منهم! ثم قال: إن هذا الأمر في قريش ما إذا استرحموا رحموا، وإذا حكموا عدلوا، وإذا قسموا –يعني المال – أقسطوا، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل». أي لا تنفعه توبة ولا فداء.

وقد قامت لقريش دولة بل دول في المشارق والمغارب، فهل راعت شروط الاستخلاف، أم جرَّت على الإسلام وأمته المتاعب؟

لقد لبث الحكم في أيدينا أحقابًا، فلمَّا لم تحسن الأمة الإفادة منه في دعم رسالتها ورفع رايتها، انتزعه الآخرون منها، وها هي ذي تلهث لتستعيده.

وهو إن شاء الله عائد إلينا طال الزمان أو قصر، غير أنه لن يعود حتى تختفي من بيننا أوهام كثيرة في فهم معنى السلطة، وحى ترقى أمتنا ماديًّا ومعنويًّا فتكون الدولة في يدها لخير الجماهير لا لإرضاء فرد مغرور.

إن فن الحكم في العالم المعاصر قد ارتقى إلى أوج بعيد، وفي إنجلترا مثلا يستطيع عامل في أحد المناجم أن يجابه الحكومةً دون أن تخالجه ذرة من قلق! وقد ينتصر أو ينهزم فلا يزيده نصر ولا تنقصه هزيمة! ولو وقع ذلك في بعض الدول الإسلامية لأمر الحاكم بقطع عنقه ولَمَرَّت الدهماء على جسده الملقى يقولون: ما دخلك يا صعلوك في ساسة الملوك؟

إن الشعب والحكومة معًا دون مستوى الإسلام الذي ينتمون إليه، بل هم –والحق يقال– عار عليه!

لقد اختفت تحت أطباق الثرى تقاليد الخلافة الراشدة، وبقيت في العقل الباطن للدهماء تقاليد السلاطين الذين هم ظل لله في الأرض، وفتاوى

العلماء الذين تواصلوا بقبول الأمر الواقع، أو بالتعبير الفقهي: الخضوع لمن نالوا الحكم بالغلبة والقهر..!!

ثم كان من احتكاك المسلمين بغيرهم من أهل الأرض أن ظهرت وطبقت فلسفة الديمقراطية، ورأى من لهم فقه وتقوى أنها قريبة من «الشورى الإسلامية»، فكيف انتقلت إلينا «ديمقراطية» الغرب؟

إن الحكم الفردي صالح بينها وبين رغبته، ويستطيع الحاكم «الملْهَم» في بلاد الإسلام أن يظل عشرات السنين، ينتخب هو وحده لا غير عشر مرات أو أكثر ما دام حيًّا.. ويقول هذا الحاكم للمتدينين: هذه هي الشورى التي تنادون بها، ويقول للناس من وراء الحدود: أنا وليد انتخابات حرة، وإرادة شعبية.. والأرض والسماء يعلمان أن هذا كذب وزور.

والأمر يحتاج إلى تغيير جذري كما قلنا في كيان الأمة وعقلها وضميرها حتى لا تمر هذه المهازل أبدًا.

ويضحك أولو الألباب ومن حقهم أن يبكوا عندما يسمعون متحدثًا باسم الإسلام يصحح هذه الأوضاع!

هل تحتاج أمتنا إلى أربعين سنة تصحُّ فيها كما احتاج بنو إسرائيل؟ لا أدري! كل ما أقدر على قوله: إن الإسلام لا يقبل حكمًا عسكريًّا، ولا يعرف خرافة «الناس قلوبهم مع الحسين وسيوفهم مع يزيد»، وأن على دعاة الإسلام شرح الإسلام من خلال تعاليمه؛ لا من خلال تقاليد عصور الانحطاط والفوضى في تاريخه المديد.

وعليهم أن يعدُّوا قتيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شهيدًا أغرَّ الجبين لا صعلوكًا يقاوم السلاطين، فإنهم بهذا المنطق الجبان لن يكونوا مسلمين ولن يصلحوا لقيادة أنفسهم، بله أن يقودوا العالمين..!

وصلة الاقتصاد بالسياسة وثيقة، ومراقبة سير المال بين جماهير الناس

لا بد منها، وتحديد موقف الحاكم من المال العام شارة كل دولة محترمة.

وقبل أن نشير إلى ما يقع في بلادنا الإسلامية والسمة البارزة لحياة الحاكم المسلم..

كان عمر بن الخطاب مرموق المكانة في الجاهلية والإسلام فلما ولي الخلافة، واتسعت رقعة الدولة في عهده، وورث ملك الأكاسرة والقياصرة، لوحظ عليه أنه حريص على استصغار شأن نفسه سرًّا وعلنًا، وعلى توكيد أنه رجل لولا فضل الله ما كان شيئًا يذكر..!!

كان عمر مع قافلة من الناس يمرون بشعاب «ضجنان» –جبل قريب من مكة– فسُمِع يقول: «لقد رأيتني في هذا المكان، وأنا في إبل للخطاب وكان فظًّا غليظًا احتطب عليها مرة، واختبط عليها أخرى، ثم أصبحت اليوم يضرب الناس بجنباتي ليس فوقي أحد! ثم تمثل بهذا البيت:

لا شيء فيما ترى إلا بشاشته   يبقى الإلهُ ويفنى المالُ والولدُ!

وخرج عمر يومًا حتى أتى المنبر، فشوهد عليلا، وكانوا قد وصفوا له عسل النحل، وفي بيت المال عُكَّة منه –آنية صغيرة – فقال للناس: إن أذنتم لي فيها أخذتها، وإلا فإنها عليَّ حرام، فأذنوا له فيها..

وكان عمر يؤكد أنه ما قَبِل الخلافة إلا رجاء أن ينهض بما لا يقدره غيره على النهوض به، ولولا ذلك لنأى عنها، وفي ذلك يقول: «ليعلم من ولي هذا الأمر من بعدي أن سيريده عنه القريب والبعيد، إني لأقاتل الناس عن نفسي قتالا! ولو علمت أن أحدًا من الناس أقوى على هذا الأمر مني لكنت أن أُقَدَّم فيضرب عنقي أحبَّ إلى من أن أتولاه.

وقال عمر للناس يوما: «أنا أخبركم بما استحل من مال المسلمين! يحل لي حلتان حلة في الشتاء وحلة في القيظ، وما أحج عليه وأعتمر من الظَّهْر، وقوتي وقوت أهلي كقوت رجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم.. ثم أنا

بعد رجل من المسلمين يصيبني ما أصابهم».

ورووَا أن الربيع بن زيادة الحارثي وفد على عمر بن الخطاب فأنس إليه عمر وأعجبته هيئته، فشكا إليه عمر طعامًا غليظًا أكله، فقال الربيع: يا أمير المؤمنين، إن أحق الناس بطعام لَيِّن وملبس لين لأنت. فرفع عمر جريدة معه فضرب بها رأسه، وقال: أما والله ما أراك أردت الله بمقالتك، ما أردت إلا مقاربتي! ويحك، هل تدري ما مثلي ومثل هؤلاء –جماهير الناس.

قال الربيع: ما مثلهم ومثلهم؟ قال عمر: مثل قوم سافروا فدفعوا نفقاتهم إلى رجل منهم وقالوا له: أنفق علينا! فهل يحل له أن يستأثر منها بشيء؟ قال: لا يا أمير المؤمنين. قال: فكذلك مثلي ومثلهم.

ثم قال عمر: إني لم أستعمل عليكم عمالي ليضربوا أبشاركم[١] ،وليشتموا أعراضكم، ويأخذوا أموالكم! ولكني استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم. فمن ظلمه عامله[٢] بمظلمة فلا إذن[٣] له عليَّ ليرفعها إليَّ حتى أَقِصّه[٤]منه! فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين، أرأيت أدَّب أميرٌ رجلا من رعيته أتقصه منه؟ فقال عمر: وما لي لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يُقصّ من نفسه؟!

وكتب عمر إلى أمراء الأجناد: لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تحرموهم[٥]فتكفِّروهم! ولا تجمِّروهم[٦] فتفتنوهم، ولا تنزلوهم الفياض[٧] فتضيعوهم.

---

١ – جلودكم.

٢– رئيسه أو أميره.

٣– يجيئني توًّا ليبلغني شكواه.

٤– أُقصّ بضم الهزة وتشديد الصاد: آخذ له الحق من الذي اعتدى عليه.

٥– تجيعوهم، وتنغصوا عيشهم.

٦– لا تجعلوا الجنود يبتعدون عن نسائهم مده طويلة في ميادين القتال؛ فإن ذلك يغريهم باقتراف الفواحش.

٧– وقد أثبتُّ هذا النص في كتابي «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» في سياق مهم.

تلك علاقة الشعوب بحكامها في تعاليم الإسلام، وقد نكبت الجماهير في أقطار عدة برجال مترفين استباحوا الضعفاء، وأذلوا من أعز الله، وأعزوا من أذل الله، فقامت عليهم ثورات مُخْنَقة ركب موجتها شبان مغامرون باسم الاشتراكية التي تنصف الشعوب وتحقق العدالة الاجتماعية، فماذا كان؟ دخلت الشعوب في محن متتابعة أفقدتها دينها ودنياها معًا، وأنزلت بها هزائم عسكرية وسياسية كست الوجوه بالقار والعار!

رفع أولئك المغامرون شعار العروبة بعد تجريدها من الإسلام، واتِّباعها المذاهب المغيرة على بلادنا من الشرق الشيوعي أو الغرب الصليبي، وأُكْرِهَتِ الجماهيرُ إكراها على قبول الشعار الجديد.

وكان بالقادة الجدد جوع شديد إلى الطهور والعظمة، كما كان بهم جوع إلى الرفاهة والبذخ، فإذا قصورهم تترع بالملذات، وأهلوهم يمرحون في فنون من الوجاهات والمتع.

ولما كانوا خالين من المواهب الرفيعة والتجارب المفيدة، فقد أساءوا النقل والاقتباس، وزعموا أنهم سوف ينهضون بالبلاد صناعيًّا، فأضاعوها زراعيًّا وصناعيًّا.. وكانت نتائج انقطاعهم عن الله وجهالتهم بالحياة، أن خذلتهم قوانين الأرض وبركات السماء، فإذا العرب والمسلمون يقعون في ورطات رهيبة وتجتاحهم هزائم مذلة في كل ساحة.

وما عسى أن يفعل القدر لرجل يخطب في الحشود المسُوقَة إليه فيقول وهو يعبث بين أصابعه بقلم: ماذا فعل محمد للناس؟ محمد! هكذا يُذْكر صاحب الرسالة العظيمة! وتصورت مَعْزة خرجت من مَرْبَضِها لتقول للشمس: اغربي إنك ما تصنعين للكون شيئًا!!.

وزعيم آخر نسي كل النسيان أنه كان في طفولته يجرى وراء جحاش القرية، ثم صيرته الاشتراكية زعيمًا، فإذا هو لا يمتطي في تنقلاته إلا الطائرات السَّمْتية كبرًا عن أعظم السيارات.

وآخر، وآخر.. ما أكثر الأصفار التي ظنت نفسها ألوفًا في أرض الإسلام اليتيم!

والجماهير تنظر في بلاهة، وقد حبسها في موقفها السلبي حب الدنيا وكراهية الموت، وإرخاص الحق وعشق الشهوات..

إن رسالتنا الكبرى قاعدتها أمة مؤمنة بها حريصة عليها، وأداتها الأولى جهاز الحكم فيها، وقد تكون الأداة قاصرة، أيامًا أو شهورًا! أما أن تكون الأداة مضادة للرسالة منسلخة عن وحيها، والأمة نفسها لا تعي ولا تتحرك فالأمر يتصل بالقاعدة نفسها..! والإصلاح الأول لا يتجه إلا إليها..

من أجل ذلك أهيب بالإسلاميين أولي الغيرة على دينهم ألا يضيعوا وقتًا في جدال، وألا ينخدعوا عن فساد الموضوع بفساد الشكل، وأن يتجهوا إلى أمتهم ذاتها يعالجون عشرات العلل الكامنة والوافدة التي تنخر في كيانها وتباعدها عن كتاب ربها وسنة نبيها.

إن الحالمين بانقلاب عسكري يجب أن يستيقظوا وإلا كانوا هم أنفسهم قسمًا من المرضى!

لقد تدبرت أحوال دول لا تزال تعبد الأصنام فوجدتها وصلت إلى حد الاكتفاء الزراعي، وقفزت إلى الصناعات الإلكترونية، وفجرت القنبلة الذرية، واستقرت فيها الأنظمة الديمقراطية، ورجعت البصر إلى أمتي فوجدتها دون ذلك كله، فازداد حسي بخطورة ما انتهينا إليه!.

بل لقد تأكد لديَّ أن الحضارة الغربية – بشقيها المتنافرين – قد تبقى عصرًا آخر لا يعلم إلا الله مداه، ما بقي المسلمون رسميًّا وشعبيًّا على هذا المستوى من الإسفاف في نواحي حياتهم الفردية والاجتماعية؛ لأنهم لن يصلحوا بديلا لوراثة الأرض.

إن الدين كما درسته في كتاب ربي إيمان وإصلاح لا نفاق وإفساد.. ألا

تقرأ قوله تعالـى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (الأَنْعَام: ٤٨، ٤٩).

ما أحلى شعار الحكم بما أنزل الله، وما أجداه على الشعوب والحكومات جميعا! لكن الفريقين معًا لا يحكمان بما أنزل الله..

هل تحكم بما أنزل الله في نفسك وفي بيتك، وبين جيرانك وإخوانك، وفي عملك؟ لقد تقلبت بين طوائف كثيفة، وبلوت الكبار والصغار، فشعرت أن الناس عندما يتخلون عن مشاعر الحب والرحمة، وتستبد بهم نوازع الأَثَرَة والتكاثر يتحولون إلى وحوش مرهوبة الفتك!.

أين كلمة الرسول: « لن تؤمنوا حتى تحابوا...»؟ إن فقدانها لا يسد مسده شيء، وشرائع الحدود والقصاص ما منها بد! بيد أنها لا تغني أبدًا عن شرائع الأخلاق وتقاليد الحنان والأدب والرفق.

والحكومات تستبعد من عالم القانون نصوصًا دينية لا ريب فيها؛ لأن الصليبية والشيوعية قررتا إماتة هذه النصوص، وسوف تعترضان محاولات بعث الحياة في هذا التراث..

حسنا، فهل يتحقق الإسلام عندما يطبق المسئولون في العالم الإسلامي هذه الشرائع؟ إن الذين جاءوا بطريق غير إسلامي لن يحسنوا الحكم بما أنزل الله! والذي سرق منصبه بطريق التزوير أو الاغتصاب لن ينصف الإسلام يوم يقطع يد لص صغير، كل ما حدث أن اللص الكبير قطع يد لص ضعيف..

الإسلام كلٌّ لا يغني بعضه عن بعض، والحكومة فيه إفراز طبيعي لأمة مؤمنة؛ أمة اختارت الأكفأ والأصلح، وائتمنته على دينها ودنياها، ووضعته تحت رقابتها، ولها حق مطلق في تنحيته يوم تشاء!.

الشعوب الطبيعية عرفت ذلك ونفذته، فنفذت جزءًا من منطق الفطرة، أعني منطق الإسلام، وهل الإسلام إلا الفطرة السليمة؟

إن غيرنا أقرب إلى تعاليم الإسلام في مجال الحكم، وإن كان بعيدًا عنه في مجال الاعتقاد!.

يعلم الناس أن مستر «تشرشل» هو بطل إنجلترا وكاسب النصر لها في الحرب العالمية الثانية، وحقه على قومه كبير، لكن قومه رأوا غيره أقدر منه في أيام السلام، وأجدر بالوزارة فأبعدوه دون حرج، وذهب الرجل إلى بيته دون ضجة.

وكذلك جنرال «ديجول» الذي مسح العار عن وطنه في أيام كالحات، وقاد في المنفى حرب مقاومة انتهت بالنصر، لقد قال له الفرنسيون يوما: جنرال لُمَّ ورقَك واترك منصبك. فكان الرجل أسرع من البرق في جمع أوراقه والانطلاق إلى قريته..

ولو فكر أحدهما في الخروج على مشيئة أمته لما وجد خادمًا يقدم له الطعام، بل ما وجد من يبيعه الخبز، ذاك لو بقي حيًّا!.

أما في البلاد التي يعيش فيها مليار عربي ومسلم فللوثنية السياسية منطق آخر..

يقول القائد اليهودي «مردخاي»: «إن النصر الذي تَمَّ لنا في حرب الأيام الستة فاق أشد الأحلام جنونًا». وهذا حق؛ فقد كسب اليهود أرضًا ومالا وجاهًا تتجاوز الخيال دون خسائر تذكر، لم تكن حربًا هذه الرواية التي وقعت! إن القادة العرب قدموا جنودهم لجزارٍ لا تكلّ يداه من الذبح، وعندما تعب من التنكيل بخصمه ساق البقية أسرى!!.

ثم ماذا؟ رجع القادة المدحورون المعصوبون بالخزي يقولون في وقاحة لم يعرف التاريخ لها نظيرا: هذه نكسة! المهم أننا نحن بقينا! ثم ماذا أيضا؟

انتظروا من الجماهير أن تهتف بأسمائهم وأن تقدم لذواتهم المصونة الولاء. وتم لهم ما انتظروه! قادة النصر في الغرب تستبدل بهم شعوبهم من تراه أفضل لها، وقادة الهزيمة هنا يبقون جاثمين على صدر الأمة حتى يوردوها القبور!!.

ولا أزال استغرب الصمت الذي يحف قتل عشرات الألوف من المسلمين في حماة، ثم في طرابلس – لبنان!! لئن كان القتل جريمة شنعاء إن هذا الصمت الجبان جريمة أشنع، لكن هذه نتائج الموت الأوليّ.. وما زلت أؤكد أن العمل الصعب هو تغيير الشعوب أما تغيير الحكومات فإنه يقع تلقائيًّا عندما تريد الشعوب ذلك..!!

إن علل أمتنا غليظة، وإذا لم ينشغل دعاة الإصلاح بعلاجها فبِمَ يشتغلون؟

هناك تقاليد انحدرت إلينا من ماضٍ طويل، ما أنزل الله بها من سلطان، ثم جاءنا الاستعمار العسكري والثقافي بتقاليد أخرى هي من مباذل الغرب وهناته، ربما كان محصنًا ضدها أو قليل التشكّي منها، لكنها لما جاءتنا كانت بالغة الضرر..

هذه التقاليد وتلك اعوجَّت بفكرنا وسلوكنا على سواء، وأكاد أقول: إننا بهذا الاعوجاج نشبه بني إسرائيل قبل أن يعاقبوا بأيام التيه! أو نشبههم عندما تمردوا على الوحي، ولعنوا على لسان داود وعيسى ابن مريم..

وما خلت الأمة على تطاول القرون من مذكّر بالحق وداعٍ إلى الخير!

والذي ألفت النظر إليه أن التغيير الحاسم لا يتم ارتحالا، ولا يتم بين عشية وضحاها، ويجب أن يتجرد له رجال لا يخافون في الله لومة لائم، ولا تخلع قلوبهم رهبة أو رغبة، يمشون في الطريق الطويل الذي سار فيه الأنبياء، ولا يفكرون في انقلابات عسكرية أو ثورات مسلحة، إنما يفكرون في الإصلاح المتأني، والتغيير الذي جزم القرآن الكريم بنتائجه عندما قال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾ (الرَّعد: ١١).

وهناك من يطلب السلطة لتكون بين يديه أداة التغيير المنشود، وأكره أن أتهم نية هؤلاء أو نهجهم، فقد عشت معهم وما زلت بينهم، ووجهة هؤلاء الرجال أن الحكم في أرض الإسلام منحرف من زمان بعيد، وهم يتساءلون: ما الشرعية التي يعتمد عليها هذا الحكم؟ الحكومات المدنية تستند في مشروعية بقائها على أنها تمثل الشعب، والحكومات الدينية تستند إلى أنها تطبق الدين! فإذا لم يكن ثم تمثيل للشعب ولا تحكيم للدين فأين مشروعية البقاء؟!

والنزاع الدموي الطويل الذي شجر بين الفريقين يرجع إلى التنافر الحقيقي بين الأمر الواقع وطلاب التغيير!.

وأنا أدعو هنا إلى سياسة جديدة في خدمة الإسلام، وبناء أمته التي تتواثب حولها شياطين الإنس والجن تريد تكفينها والخلاص منها. ودعوتي أساسها الاستفادة من التجارب الطويلة، والنظر الدقيق في الأسلوب الذي سار عليه رسول الله، وخاتمهم العظيم محمد بن عبد الله، الذي دعا إلى الحق، وتنزه عن كل مأرب، وأمَّن أهل الدنيا على ما بأيديهم ﴿ قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ﴿٤٧﴾ ﴾ (سبأ: ٤٧).

وقد لاحظت في أثناء الصراع القاسي بين الإسلاميين وغيرهم من الحكام أن أغلب الذين يملكون الأمور يمضون مع تيار السلطة وينغمسون في عبابه انغماس السمك في الماء.. أي أنهم يحسون أن الخروج منه انتقال إلى الموت، فهم يدفعون عن حياتهم، ويرون من يحاول استلاب السلطة منهم قاتلا، يجب الإجهاز عليه قبل أن يجهز عليهم.

وشيء ثانٍ: أن ظنهم سيء بالإسلاميين، فهم لا يرونهم أصحاب مبادئ

بل أصحاب مطامع، وأن مغانم الحكم هي التي تحركهم، فلماذا تترك لهم؟.

والشيء الثالث الخطير: أن بعضهم يجهل الإسلام جهلا بسيطا أو مركبًا، بل لقد رأيت في سياحتي بالعالم الإسلامي من يكره الصلاة والعفاف أكثر من كره الشيوعيين والصليبين لهما!!.

ويفرض هذا كله على الدعاة التجرد التام وهم يرفعون راية الإسلام، وأن يعلنوا بقوة عزوفهم عن الحكم ورفضهم لمناصبه، وإيثارهم أن يقوم غيرهم بمهمة التطبيق والتنفيذ وتأييدهم القوي لِمَنْ يسارع مِنَ الحكام إلى العمل بالإسلام!!.

وليست مهمة الدعاة تلمس الأخطاء وكشف أصحابها، ولا أن نتحول إلى نقاد سياسيين يشغلنا الهجاء عن البناء.. الذي أراه أن نكدح في الميادين الداخلية لنعيد بناء أمة توشك أن تتحول إلى أنقاض، وما أكثر هذه الميادين وأفقرها إلى العاملين.. إننا لو انتصرنا فيها ربحنا تسعة أعشار المعركة.

وكل عمل مقرون بالجهل أو الغلو يصيب الإسلام في مقاتله، ويجعل صاحبه – من حيث لا يدري – عونًا لخصوم هذا الدين.

قد تقول: إن السلطات القائمة سوف تمنعنا من هذا العمل! فماذا ترى؟ وأقول: إن الأنبياء منعوا من قبل عن أداء رسالتهم لكنهم مضوا في الطريق الطويل يتحملون التكذيب والتعويق ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ﴾ (الأَنْعَام: ٣٤)، مضوا يبنون ولا يهدمون ويحسنون ولا يسيئون، ومضوا في طريق التوعية والتربية والتبصير بالآخرة والإشراف على الحياة الدنيا من مستواهم العالي، لا يزاحمون عليها، ولا يُظنّ بهم طمع فيها، حتى تخير الله لهم مكان النصر وزمانه، وكان ما قدر الله.. عاش مَنْ عاش محقِّقًا رسالته، ومات من مات موطِّدًا عند الله مكانته.

لقد سمعت بعض الشباب يشكو طول هذا الطريق، ويهز رأسه رافضًا، إنه يريد معركة سريعة! إن ريبتي شديدة في قلوب هؤلاء أو في عقولهم، وأدعو الله أن يقي الإسلام شرهم.



الأبعاد الإنسانية
لخطاب الرسول في حجة الوداع

عندما أصلي على محمد ﷺ أشعر بأنني أزجي الثناء الحسن لمن يستحقه، وأنوِّه بالعبودية الصادقة لمن عاش حياته يرضي ربَّه ويجاهد في سبيله! وأسأل ربي أن يتقبل صاحب هذه الحياة المباركة ويخلد آثاره، وأن يساعدني على اقتفاء أثره والاقتداء بسنته.

وعندما أسلِّم على محمد ﷺ وإخوانه المرسلين أقف على أطلال ماضٍ طويل، وتاريخ سحيق كان رسل الله خلاله يكافحون الطواغيت ويخاصمون الجاهليات، وقد سال عرقهم ودمهم وتغضَّ جبينهم وتنكد عيشهم، ولكنهم صابروا وتحملوا.. وبعد لأيٍ دارت الرحى على الكافرين فحصدتهم، ونجحت العقائد والشرائع ومعالم الوحي الأعلى وخلصت للأجيال المقبلة كي ينتفعوا بها، ويحصدوا ما غرس الأولون! وقيل بعد هذا العراك المرير: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾، وقيل أيضًا: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

إنني عندما أصلِّي وأسلِّم على محمد ﷺ أصلُ نفسي بأشرف ما في الوجود، وأثبت خطوتي على الصراط المستقيم، وأرتضي قيادة تحتضن الحق وتؤثر الرشد، وأعلن أن هواي مع ما جاء به.

إن الصلاة والسلام هنا توكيد منهج وتحمل عبء، ومشاركة قلبية وفكرية للإنسان الذي حرر الإيمان من الخرافة، ونقَّى الحق من الشوائب، وربط الفطرة السليمة بالوحي، وصالح بين العقل والدين، وجعل الدنيا مهادًا صالحًا للأخرى.

إن محمدا ﷺ ليس بشرًا عاديًّا.. إذا كان الناس أجمعون قد خلقوا للعبادة فإن محمدا ﷺ كان النموذج الأكمل للعبودية المستكينة العانية المستسلمة لجلال الله، وإذا كانوا قد خلقوا ليظهر أيهم أحسن عملا فإن محمدًا ﷺ حلَّق بسيرته في مستوى ترنو إليه الفلاسفة والأبطال والقادة

العظام، ثم يتمنون لو أدركوا غباره، ونضح عليهم سنا منه.. نعم ليس محمد ﷺ بشرًا عاديًّا، وقد درست حياة رؤساء وساسة ومفكرين ورجال سلام ورجال حروب، وأناسًا واتتهم الحظوظ فبرزوا، وآخرين كَبَتْ بهم الحظوظ ففشلوا.. وأُبْتُ بعد هذه الدراسة وأنا أحمل في نفسي تقديرًا خاصًّا لمحمد ﷺ النبي الإنسان.. النبي المربي.. النبي الذي أصلح أخطاء القرون وردَّ للعالم عقله الغائب، وكثيرًا ما أودع تقديري ذاك في الصيغة التي أمرنا بترديديها؛ صيغة الصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله.

استصحبت هذه العاطفة وأنا أطالع الصحائف الأخيرة من السيرة الناضرة، وأتابع الكلمات التي قيلت في حجة الوداع. إن الخطبة التي ألقيت في هذه الحجة لا تستغرق بضع دقائق ولكنها من أهم خطاب يستغرق بضع ساعات، ولا عجب فصاحبها أوتي جوامع الكلم، واختُصِرت المعاني له اختصارًا، والأنبياء ليسوا تجار كلام ولا عارضي أساليب، إن اللغة على ألسنتهم قوالب للحق، وأوعية للمعاني وشفاء لما في الصدور، وذاك حسبهم في الأداء..

وليس في خطبة الوداع شرائع جديدة، إنها ترديد لأحكام سبقت، أو تطبيق لأصول تقدمت، أو تلخيص لما استفاض شرحه، والمراد تذكير الناس عامة بما قد يحاول الشيطان زحزحتهم عنه أو تنسيتهم إياه..

وكان الرسول ﷺ يشعر بأنه قارب النهاية، وأن الأمة التي أنشأها قد تشبثت بظهر الأرض وفرضت نفسها على التاريخ، وانتقل الأذان مع الرياح الأربع، وتوزعت جماعات الصلاة على أطراف الزمان، فهي تلتقي على طاعة الله قبل طلوع الشمس وقبل الغروب.. ماذا بقي له؟ لا يريد لنفسه شيئًا، صحيح أنه مرسل للعالمين، ليكن، فهؤلاء الذين ربَّاهم سيمدون النور إلى ما بقي من أرض الله.. إن الجيل الذي رباه جزء من الرسالة التي أدَّاها..

من أجل ذلك كان يحدِّث وفي الوقت نفسه كان يودِّع، وفي تضاعيف

حديثه كان يفرِّغ كل ما في فؤاده من نصح وحب وإخلاص.

والعرب قبل غيرهم من الناس أجدر أهل الأرض أن يعوا هذه الوصايا، فإن النبي الخاتم عانى معاناة طويلة وهو يخرجهم من الظلمات إلى النور، ويبرئهم من علل يكاد الشفاء منها مستحيلا، وعندما صنع منهم بالإسلام أمة جديدة أراد أن تكون هذه الأمة عنوانًا عظيمًا على حقيقة عظيمة؛ أي أن دعايتها للإسلام ليست نشرات مكتوبة توزعها وزارة سياحة، أو خطبًا تعتمد على إحصاءات مكذوبة، أو أنباء مختلقة.. لا..لا.. إن جمال عملها بالإسلام وصدق بلاغها عنه هو الذي يضع لها القبول ويجمع حولها الأنصار.

إن النبي عليه الصلاة والسلام يعرف العرب معرفة جيدة، ويعرف أغوار الفرقة والخصام في أفئدتهم، ويريد إشعارهم بالنعمة التي أفاءها الله عليهم، ولذلك يقول لهم في هذه الحجة، حجة الوداع: «ويحكم أو ويلكم!! انظروا.. لا ترجعون بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض».

ما أغلى هذه الوصية، وما أبعد مداها في التاريخ لقوم يعقلون.. على أن العلاج النبوي ليس لطيش الغرائز عند جنس بعينه، إنه لأجناس الخلق كلهم، والأمر كما قلنا في مكان آخر: إن الله ربَّى محمدًا ليربِّي به العرب، ورُبِّيَ العرب بمحمد ليربي بهم الناس أجمعين ﴿ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (الحجّ: ٧٨).

ومن ثم جاء في آخر الخطاب النبوي: «ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه».

وقد دخل في دين الله بعد ذلك ألوف وألوف كانوا على اختلاف الألسنة والوجوه أوعى له مِنْ بعض مَنْ سمعه.

ونعرض الآن للمبادئ الرئيسية في هذه الخطبة الجليلة وفق ترتيب اخترناه يناسب عصرنا:

الإنسانية متساوية القيمة في أي إهاب تبرز، لا يفرق بينها سواد أو بياض، لا يفاوت بينها نسب إفريقي أو أوربي، فالنزعات العنصرية، والنعرات الوطنية ضرب من الدجل والإفك.

ومن ذكر الواقع الرديء أن نصفَ الحضارة الحديثة بأنها حضارة القوميات والألوان، وأن شعوب أوربا وأمريكا تضمر في نفسها احتقارًا لأبناء القارات الأخرى، ومهما غطت هذا الشعور فهو يتنفس بقوة في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولم تفلح المواثيق النظرية في كسر شرِّه. وقد نبه ﷺ إلى ضلال هذا المسلك في خطبة الوداع بقوله: «أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم. ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد».

ولكسب المال قصة عميقة المجرى في تاريخ البشر، وقد راقبت الأنظمة المتضادة وهي تحاول توفير الطمأنينة بين الناس؛ راقبت نظام التحكير ونظام التسعير، نظام إطلاق الملكية وتقييدها، نظام سيطرة الفرد وسيطرة الشعب فوجدت أن النفس تدور حول أثرتها، ولا تبالي بشيء في سبيل غايتها.. وما لم يكن هناك إيمان بالله فإن قوانين الأرض مسرح للعبث والتظالم، من أجل ذلك يقول الرسول ﷺ في هذه الخطبة: «أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه». لكن هذه الإشارة المجملة لا تغني عن إيضاح أوسع يحسم مادة التظالم بين الناس في شئون الحياة كلها فلنستمع إلى هذا التوجيه المثير.

أيها الناس، أتدرون في أي شهر أنتم وفي أي يوم أنتم، وفي أي بلد أنتم؟ قالوا: في يوم حرام، وفي شهر حرام، وبلد حرام! قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم.. ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد.

لكن بعض الجبارين؛ حكامًا كانوا أم محكومين، تحملهم قوتهم على اجتياح الضعفاء، ونكبتهم في حقوقهم المادية والأدبية، وقد اشتعلت ثورات هائلة للثأر من الظلمة، ووقعن حمَّامات دم، لم يكن القصاص فيها من الظلمة بقدر ما كان من ذراريهم وحواشيهم، ثم اتسع الخرق فهلكت ألوف مؤلفة من الأبرياء، وقامت حكومات جديدة ونشأت أنظمة أخرى، وتكررت المأساة نفسها حتى لكأن التاريخ سلسة من المظالم من يفر فيها من الجناة أضعاف من تحيط بهم خطاياهم، وسوف يبقى الأمر كذلك حتى نعي قول رسول الله ﷺ في هذه الخطبة: «إنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم».

وكان الرِّبا قديمًا رذيلة ساذجة، أساسها إمهال الْمُعْسِر بثمن يسير أو فاحش، ثم أمسى في المؤسسات العالمية رذيلة معقدة مدروسة تطيح فيها شعوب وجماعات. الدولة الفقيرة الآن تريد بناء مرفق هي في حاجة إليه، فتقترض المال المطلوب من دولة غنية، ثم تأخذه على شرط شراء مواد البناء من الدولة الْمُقْرِضة، وجعل الجهاز العامل من أبناء هذه الدولة! وبعد أن تحدد سعر الفائدة الربوية كما تشاء، تحدد أجور الموظفين من بنيها، وأسعار المواد التي تقدمها، وتصرف القرض مائة ليعود إليها عدة مئات.

وجمهرة الدولة الفقيرة الآن معرضة للإفلاس من جراء هذه السياسة الجشعة، وهي تترنح تحت وطأة الوفاء بما يبهظ كاهلها أو يقصم ظهرها.

وودت لو تبنَّتِ الدول كلها مبدأ تحريم الربا، وتقرير مصارف إدارية معقولة للصناديق أو المصارف التي تشتغل بالإقراض، هكذا علم النبي ﷺ من خمسة عشر قرنًا عندما قال: « ألا وإن كل ربا في الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به – أسقطه – ربا عمي العباس بن عبد المطلب». وكان من كبار التجار المتعاملين بالربا.

وقد رأيت أن تحريم الربا لا يستريح له إلا من خشي ربه،وقد قال بشناعة

الربا كارل ماركوس، فهل نفذ التحريم من حكم باسمه من الشيوعيين؟ كان الروس يبيعون السلاح للدول التابعة لهم بأغلى الأسعار، ثم يتقاضون الثمن المؤجل مضافًا إليه ربًا فاحشا.

إن الحضارة المادية التي تقود العالم لا تعرف إلا اليوم الحاضر والربح العاجل، أما قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ ﴾ (البقرة: ٢٨٠) فحديث خرافة.

وصيانة الدماء قضية خطيرة، وعندما كتب الله القصاص في القتل والجراحات كان يريد زجر المجرمين عن العدوان، وعندما يعلم امرؤ أنه لاقٍ حتمًا المصير الذي يوقعه بغيره سيتردد طويلا في قتل هذا أو جرح ذاك.. وإذا غلبه الطيش فاعتدى فإن منظره مقتولا أو معاقبًا سيوقع الرهبة في قلوب الآخرين، وقد قيل: القتل أنفى للقتل، وقال الله تعالى: ولكم في القصاص حياة.

وأغلب الدول العظمى الآن ألغت القصاص! واكتفت بعقوبات تافهة لم تُجْدِ في حماية المجتمع، وأصابتنا حمى التقليد، فشاعت بيننا الجرائم، وانشغل المظلومون بطلب الثأر لمن ينتمي إليهم أو ينتمون له.

وقد حسم الإسلام هذه الفوضى بشرائعه العادلة، ويجب علينا إسدال ستارة سميكة على الانحرافات التي سادت العالم لتبدأ بعدها صفحة جديدة من تطبيق الأحكام السماوية.

ولا كرامة لباطل كما قال رسول الله ﷺ في هذه الخطبة الجامعة: «ألا وإن كل دم ومال ومأثرة كانت في الجاهلية، تحت قدمي هذه، وإن أول دم يوضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب» قتله الهذليون في الجاهلية وكان بين ظهرانيهم. وأراد النبي ﷺ أن يفتح العرب بالإسلام صفحة جديدة تحجب الماضي، ويبدأ بها عهد جديد.

وتحدث النبي ﷺ عن حقوق النساء، وهو حديث يحتاج إليه المسلمون المعاصرون، كما يحتاج إليه بقية الناس في المشارق والمغارب، ذلك أن مواريث المسلمين الثقافية بتقاليد ما أنزل الله بها من سلطان، كما أن الأوربيين أسفَّت بهم شهواتهم إلى مدى رديء.

كان العرب لا يرون المرأة شيئًا ولا يقيمون لها وزنًا، بل لعلهم حسبوها شرًّا لا بد منه. وقد لجأ بعضهم إلى قتلها وهي طفلة حسما للمتاعب والمخازي!! ولما جاء الإسلام محا هذا المنطق محوًا، وبيَّن أن النساء شقائق الرجال، وأنهم سواء في تكاليف العقائد والعبادات والأخلاق، وأنهم سواء في استحقاق الثواب والعقاب بما يعانون من جهد في سبيل الله، وأن الزعم بأن الذكورة تقدم صاحبها وأن الأنوثة تؤخر صاحبها لون من الكذب.

وبذلك رفض الإسلام ما كان شائعًا بين العرب من ازدراء الأنوثة، وأقام مجتمعه الجديد على قواعد أخرى، وإن كانت الطبيعة العربية فيما بعد تمردت على هذه القواعد، وكما نزعت إلى التشرذم والعصبيات والمنافرات وسفك الدم نزعت إلى حصر وظيفة المرأة في شهوتي البطن والفرج، وضنَّت عليها بالوجود في ميدان العلم والثقافة والعبادة والإصلاح ودعوة الخير التي هي الصفة الأولى للأمة الإسلامية ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ ﴾.

ولا ريب أن وظيفة المرأة في بناء الأسرة خطيرة لا يقبل التفريط فيها، كما أنه لا ريب في أن المجتمع كله مطالب بصيانة الأعراض، ومنع أي عبث بها.

والأمة الراشدة تستطيع التوفيق بين هذه الأهداف جميعًا، فلا تضع المرأة في قفص الاتهام بغباوة، ولا تطلقها لتكون مصيدة للآثام، ولا تجور على غيرة الرجل، ولا تهمل حقوق الله.

وقد يخطئ الرجل فيؤاخذه المجتمع، ولا يدع تأديبه، وقد تخطئ المرأة فلا يتركها الدين وإنما يدع أمر تأديبها إلى زوجها لا ليكون جبارًا؛ بل ليمنع العِوَج والنشوز، ويعيد الاستقرار في جوانب البيت.. وفي ذلك يقول الرسول ﷺ في خطبة الوداع: «أيها الناس، إن لنسائكم عليكم حقًّا، وإنَّ لكم عليهن حقًّا، فعليهن ألا يوطئن فرشكم أحدًا، ولا يدخلن بيوتكم أحدًا تكرهونه إلا بإذنكم! فإن فعلن[1] فإن الله أذن لكم أن تهجرونهن في المضاجع، وأن تضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف! وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئًا وإنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرًا. ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد»

وعقد الزواج ليس عقد استرقاق، ولا عقد ارتفاق لجسد المرأة، إنه أزكي من ذلك وأرقى، ولم يقل الشارع: إن المرأة إذا ارتكبت خطأ ارتكب الرجل ضدها خطيئة، والمحزن أن تقاليد المسلمين بعيدة عن دينهم وليست قط صورة تشرف الإسلام.

ولا نعتذر بذلك بدنايا الغرب أو نهوِّن منها! وإنما نريد إنصاف الشريعة ومحو الغبار الذي أخفى معالمها، وشرع الله أفضل من أهواء الناس في الشرق أو الغرب.

وفي حجة الوداع أكد النبي ﷺ حرمة الأشهر الحرم، وهذا أمر يحتاج إلى بعض البيان. إن الأمم تحتاج إلى أمكنة وأزمنة يتوفر فيها السلام والهدوء، وتقلم فيها أظافر الوحوش الرابضة في دماء البشر؛ أمكنة وأزمنة يأمن فيها الإنسان على حقوقه المادية والأدبية، ويثق أنه لن يجد أذى أو كيدًا من عدو أو صديق.

١- هذا التوجيه النبوي يشير إلى العلة التي يقع من أجلها التأديب، ولا ريب أنه مما يغضب الرجل أن يدخل بيته غريب أو كريه، كما يغضبه أن تترفع المرأة عليه -وهو معنى النشوز - والتأديب المشروع ليس جلد حيوان، وإنما هو إشعار بالحق المنكور.

وقد ألهم الله إبراهيم ومحمدًا عليهما السلام فجعلا مكة والمدينة حرمين آمنين، كما أنه سبحانه جعل من السَّنَة أربعة شهور تجمد فيها الخصومات حتما وتتوقف الحروب.. وفي عصرنا حاولت بعض الدول أن تجعل نفسها محايدة بين شتى الجبهات، كما أن هناك محاولات لجعل مناطق من الأرض مجردة من السلاح الذري،والمحاولات لكفكفة شرور الناس متصلة! بيد أن الأشرار لا يكفون عن بسط أيديهم بالشر ما استطاعوا، وفي الجاهلية العربية حاول نفر من الجبابرة إبطال حرمة الشهر الحرام؛ لأنه كان راغبًا أن يقاتل في هذا الشهر فأفتى نفسه بأن يحله ن ويحرم شهرًا آخر مكانه، ويمكن الإرجاء والتبديل تبعًا للهوى. ولا ريب أن ذلك أضاع مكانة الأشهر الحرم، ومكَّن الأقوياء من العدوان كلما تيسر لهم.

ونحن المسلمين نود لو يملأ السلام أرجاء الأرض، ويستغرق أعمار البشر، وأنَّى لنا ذلك؟ في كل صلاة نهتف من أعماقنا «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»، وفي كل صلاة نفلت من شباك الفتانين والجبارين فخضنا الحروب كارهين مكرهين! ولا نزال كذلك حتى يوم الناس هذا، فماذا نصنع؟

إن نبينا صلوات الله عليه ناشد الناس أن يستعيدوا حرمة الأشهر الأربعة فلا يظلموا أنفسهم فيها، وعسى أن يكون ذلك ذريعة إلى منع القتال طوال السنة، ونحن نستأنف هذه المناشدة! بيد أننا نرفض أن تُستغلّ ضدنا، فسوف نقاتل يقينًا إذا اعتُديَ علينا في أي شهر أو إذا استجمّ العدو خلالها وأعد عدته للهجوم متربصًا بنا السوء!.

إننا نعرض على العرب وغير العرب احترام هذه الشهور لتتنفس فيها الإنسانية بهدوء.. قال عليه الصلاة والسلام:«أيها الناس، إنما النسيء زيادة في الكفر، يُضَلُ به الذين كفروا يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله. والنسيء – كما أشرنا آنفًا – إرجاء حرمة الشهر إلى شهر آخر حسب الهوى. وقد ظلوا يفعلون ذلك حتى رجع

الشهر المستباح إلى وضعه الطبيعي، فقال النبي الكريم: «ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا منها أربعة حرم؛ ثلاثة متوالية وواحد فرد، ذي القعدة وذي الحجة والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان، ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم، ولا ترجعوا بعدى كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض. ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد».

بديه أن يكون النبي ﷺ حريصًا على مستقبل أمته، كارهًا أن يصيبها ما أصاب الأمم الأولى من زيغ وغضب! والحق يخاف عليه من ناحيتين كلتاهما شرّ من صاحبتها.

الأولى: غارة همجية تدك قواعده وتمحو معالمه، وهذه تجيء من الخارج. والأخرى: فوضى علمية وعملية تجعل الغلو يغلب القَصْد، والعوج يغلب الاستقامة، فإذا وجْهُ الحقيقة دميم، وباطنها سقيم.. وهذه تجيء من الداخل، وخلل الأديان القديمة أتى منها، والمغالون والمنحرفون قد يكونون شرًّا من العاصين والفاجرين.

وقد هوجم الإسلام من الداخل والخارج على السواء، وحاولت الشياطين أن تطفئ نوره، ولكن الله كتب له الحفظ، وضمن لأصوله الخلود.

ونحن في هذا العصر نشكو جراءة العدو وطول يده في نهبنا، وغلظ طبعه في إهانتنا، وعند التأمل العميق نرى المسلمين قد لحقتهم مغارم فادحة، وسقط لهم قتلى وجرحى كثيرين، أما المفقودون الذين تاهوا هنا وهنالك ففوق الحصر!!.

ومع شناعة الغزو الخارجي، فإن فَوْضَانا الداخلية كانت أنكى، وسمعة الإسلام العالمية تحرج الصدور، حتى كتب بعض أعداء الإسلام عن التفرقة العنصرية في الإسلام (!) كيف شرعها وقررها، وحتى عرف أن الإسلام يرجح جانب الفرد المستبد على رأي الأمة (!)، وأن الإسلام صديق الفقر

والتخلف، وأنه عدو المرأة، وأن المال في مجتمعه دولة بين الأغنياء!! ومناكر كثيرة حاربها الإسلام الذي أذلَّ جانبنا.

ومع سوء الفقه وسوء الحكم خارت قوى المسلمين وذهبت ريحهم، ثم تطلعت الأخلاف بعيدًا فرأت بريق التقدم بتخلل أقطارًا أخرى لها فلسفات متبرجة ودعاوى ضخمة!! فظن المظلومون أن العدالة هنالك،وظن الفقراء والمحرومون أنهم وجدوا النعمة والكرامة في مذاهب القوم ومسالكهم.. بل ظن أصحاب البلاهة والجهل أن الإسلام كان السبب فيما عرا البلاد من تقهقر، وخير لهم أن يستبدلوا به المبادئ التي خلبتهم.

وراجت سوق العلمانية والشيوعية والديمقراطية، وهي مذاهب سدَّت نقصًا ملحوظًا عندما ظهرت؛ لأنها ظهرت في بيئات كان الخصام فيها شديدًا بين العلم والدين وبين العدل الاجتماعي والنظام الطبقي، وبين حقوق الشعوب والحق الإلهي للملوك.. إلا أنها مذاهب قرنت بكل خير قدمته شرًّا يساويه أو يربو عليه، فإذا العالم مملوء بالإلحاد والفساد والأثرة، وانضم إلى ذلك شيء آخر مثير للعجب.. إن الأديان الأرضية والسماوية جميعًا لبست هذه المذاهب الجديدة على ضغائنها وخرافاتها القديمة، واشتبكت مع الإسلام تريد محوه والعيش على أنقاضه؛ فعلت ذلك الوثنية واليهودية والنصرانية دون حياء، والحرب الآن على قدم وساق في الشرق الأقصى والأوسط وفي أفريقية وجنوب أوربا.

وبابا الفاتيكان وغيره يقومون برحلات وسياحات متتابعة للإجهاز على الدين الجريح.. بل إن الشيوعية –والمفروض أنها ذات صبغة – كشفت عن أنها حركة تخدم القومية الروسية أو الصينية،وتؤسس استعمارًا من لون جديد، وتعرض للفناء ثمانين مليونًا من المسلمين، وتعمل على محوِ شخصيتهم، وإفناءِ عقيدتهم.

إنني أحذر أمتي الكبرى من فناء ذريع يجتاحها مع هذا الاسترسال في

الغفلة والجهل بما يحاك ضدها من مؤامرات، وعجزها الشائن عن ردِّ عدوٍّ يوشك أن يأتي عليها من القواعد.

ولتعلم أمتنا أن الحل الأول هو الحل الأخير، وأن التعاليم التي صنعتنا قديمًا هي التي تصوننا الآن، وأن التفريط في الإسلام محو لكينونتنا.. قال عليه الصلاة والسلام: «أيها الناس، إن الشيطان قد يئس أن يُعْبد بأرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرونه من أعمالكم، فاحذروه على دينكم، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا، أمرًا بيِّنًا: كتاب الله وسنة نبيه، وإنكم ستسألون عني! فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت، فجعل يشير بإصبعه السبابة إلى السماء، ثم إلى الناس وهو يقول: اللهم اشهد.. اللهم اشهد».

هذه هي المعاني التي شاء الرسول أن يؤكدها في حجته الأخيرة بالناس وهو يقول: يا أيها الناس، اسمعوا مني أبين لكم، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا!!.

والوصايا التي أودعها النبي ﷺ ضمائر الناس لا تتضمن قضايا فلسفية، ولا نظرات خيالية؛ إنها مبادئ سيقت في كلمات سهلة سائغة، لكنها استوعبت جملة الحقائق التي يحتاج إليها العالم ليرشد ويسعد.. وهي على وجازتها أهدى وأجدى من مواثيق عالمية طنانة؛ ذلك أن قائلها كان عامر الفؤاد بحب الناس والعطف عليهم، شديد الحرص على ربطهم بالله وإعدادهم للقائه، عميق الشعور بعبء البلاغ الذي أخذه على عاتقه، موقنًا بأن الحياة الصحيحة يستحيل أن تتم بعيدًا عن الله ووحيه..

وقد نأى المسلمون – في هذا العصر– عن مواريث نبيهم، وإذا كان الشيطان على عهد النبوة قد يئس أن يعبد في جزيرة العرب.. وإذا كان الإسلام على عهد النبوة قد دفن النعرات الجاهلية والعصبيات الدموية، فإن هذا العصر حدد آمال الشيطان، بل نفخ فيها روح القوة. والعالم

الإسلامي اليوم تتوزعه نحو مائة قومية، وتمشي جماهيره تحت مائة راية. وبعض هذه القوميات يقبل الإسلام ضيفًا عليه – ضيفًا فحسب- وبعضها الآخر تبلغ به القحَّة أن يعد نفسه بديلا عن الدين..

وقد تفرسنا في هذه القوميات البديلة عن الدين كما يزعم أصحابها، فإذا الدين المزهود فيه هو الإسلام وحده! وإذا القوميات المنتحلة مصيدة استعمارية لطعن الإسلام وحده، والسماح بالمرور لكل دين آخر..

والقوميات الكبيرة تتجول في محيط السياسة العالمية كأنها حيتان فاغرة فاها، تبتلع ما تريد، وقد استطاعت أن تصنع في أفريقية أكثر من خمسين قومية صغيرة، أقيمت وفق مواصفات خاصة، وأشرف على تخطيط حدودها رجال الكنائس المسيحية؛ وذلك لتنفيذ خطة الفاتيكان في القضاء على الإسلام، وجعل النصرانية الدين الأول في هذه القارة.. والخطة المرسومة تنفذ بأناة ودهاء، ويتعهدها البابا نفسه بزياراته وبركاته!.

وما صنع في أفريقيا صنع مثله من قبل في آسيا، فروسيا أنشأت الاتحاد السوفيتي من أربع عشرة قومية، خمس منها إسلامية، قيل لها كي تقف مقاومتها الحربية: إنها لن تضار من الانضمام إلى هذا الاتحاد من الناحية الدينية.

قال الأستاذ أحمد سليمان المحامي في مجلة الفكر الإسلامي السودانية: أصدر لينين منشورًا مليئًا بالوعود الحسنة للمسلمين، وقعه معه ستالين في ١٩١٧/١٢/١٥م –إذ كان مسئولا عن شئون القوميات– جاء فيه: إن أديانكم وعاداتكم ومعاهدكم العلمية والقومية مصونة من كل اعتداء! نظموا حياتكم القومية تنظيمًا يستند إلى أسس الحرية والاستقلال، وهذا من حقكم الشرعي! واعلموا أننا نحن البلاشفة ندافع عنكم وعن حقوق كل الشعوب التي تعيش في أنحاء روسيا.. إننا برفع علمنا هذا إنما نعلن للشعوب المستعبدة في روسيا شعار الحرية والاستقلال. أيها المسلمون، نحن

ننتظر منكم معاونتكم المادية والأدبية.

ولكن سرعان ما نكص ستالين عن وعده عندما استتب له الأمر.. وهو بهذا النكوص يكرر ما فعلته من قبل القيصرة كاترين الثنية التي وعدت المسلمين بحمايتهم إذا استكانوا للحكم الروسي، فلما ملكت أمرهم أصدرت في ٨/٤/ ١٧٨٣م منشورًا تعلن فيه وقد أخذتها العزة بالإثم حنثها بوعدها قائلة: «لذلك أراني في حِلٍّ من تعهداتي السابقة بالتخلي عن القرم وترك شعوبها حرة مستقلة، وأجد من حقي أن أعود فيما أعطيت، وأن أضع يدي على هذا الإقليم...».

الواقع أن المسلمين ضياع في روسيا على عهد القياصرة البيض والحمر جميعًا، وأنهم يعاملون باستهانة وجفاء، وقد شرحنا ذلك في كتابنا «الإسلام في وجه الزحف الأحمر».

إنه –كما ينقل موظف من بلد إلى بلد– تُنَقّل شعوب بأسرها من قطر! وتبتر بترًا علاقتها بماضيها ومجتمعها وأواصرها الروحية والتاريخية، يكفي أن يضمن لها الأكل، كما يضمن للدواب العلف، ثم تظل تكدح إلى أن تهلك!! كذلك فُعِل بالمسلمين.

ويقول الأستاذ أحمد سليمان: إن الأساليب التي اتخذتها كاترين هي هي التي اتخذها ستالين، الحكام أغلبهم من القومية السلافية، والنفي مصير كل من يرتاب في ولائه، والإعدام يقضى به حتمًا على كل من يرفع صوته متبرمًا من ظلم وقع عليه أو على غيره..

وكما فرضت كاترين توطين بعض الطوائف الكارهة للإسلام في أرض الإسلام فعل ستالين؛ فقد نفى عشرات الألوف من المسلمين إلى سيبيريا واستبدل بهم مهاجرين من قوميات أخرى، وفي أحد الأفواج التي نقلت إلى الأرض الإسلامية بلغ عدد اليهود القادمين خمسة وثلاثين ألفا. وكان بعض البلاشفة من السلالات اليهودية يقولون لأبناء جلدتهم: لقد انتقمنا لكم

من المسلمين الذين طرد أسلافهم جدودكم عندما كانوا في جزيرة العرب!! وها أنتم أولاء تعيشون وسطهم في أرض الاتحاد السوفيتي العظيم».

المأساة الكئيبة أن المسلمين يجهلون تاريخهم، وأن العرب خاصة يجهلون أو يجحدون ما صنع الإسلام لهم، وكيف رفع خسيستهم!!

إنني أذكرهم بوصايا النبي ﷺ وهو يودعهم، ويدعهم يواجهون الحياة وحدهم! إنه يقول لهم: لستم وحدكم،معكم كتابي وسنتي! ميراث لا يَعْدله ميراث، احذروا التهاون به، فمن فعل ذلك ﴿ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝ ﴾ (الحج: ٣١).

سلام على صاحب الرسالة الخاتمة، ما دامت الأرض والسماء، وما قامت بربها الأشياء.

سلسلة إصدارات روافد

١- الشهود الحضاري للأمة الوسط في عصر العولمة.

———————— د.عبد العزيز برغوث.

٢- عينان مطفأتان وقلب بصير(رواية).

———————— د. عبد الله الطنطاوي.

٣- دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية.

———————— د. محمد إقبال عروي.

٤- إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية.

———————— د. الطيب برغوث.

٥- ظلال وارفة (مجموعة قصصية) .

———————— د. سعاد الناصر(أم سلمى).

٦- قراءات معرفية في الفكر الأصولي.

———————— د. مصطفى قطب سانو.

٧- من قضايا الإسلام والإعلام بالغرب.

———————— د. عبد الكريم بوفرة.

٨- الخط العربي وحدود المصطلح الفني.

———————— د. إدهام محمد حنش.

٩- الاختيار الفقهي وإشكالية تجديد الفقه الإسلامي.

———————— د. محمود النجيري.

نهر متعدد.. متجدد

هذا الكتاب

إن عمل الخير والدعوة إلى الخير سمات الأمة الظاهرة، وملكاتها الباطنة، ووظيفتها الدائمة، وشهرتها التي تملأ الآفاق، وإجابتها عندما تسأل عن منهجها وغايتها...

رسالة الأمة –كما شرحها كتابها– فعل الخير، والدعوة إليه، عمل المعروف ومحو المنكر!.

ومعنى الخير مركوز في فطرة البشر وقد يضبطه الوحي الإلهي ويزيل ما يشوبه من لبس، وكذلك معنى المعروف، فإن العقل والنقل يتطابقان غالبا على إبرازه ودعمه..

وإيراد رسالة الأمة تحت هذا العنوان مقصود حتى يعرف القاصي والداني ما هي وجهتها وما هي شرعتها؟

إن دينًا يزن الأعمال بمثقال الذرة لا يقبل الفوضى الهائلة التي تقع بين الناس، سواء أكانوا مسلمين أم كانوا هودًا أو نصارى.



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية
www.islam.gov.kw/thaqafa